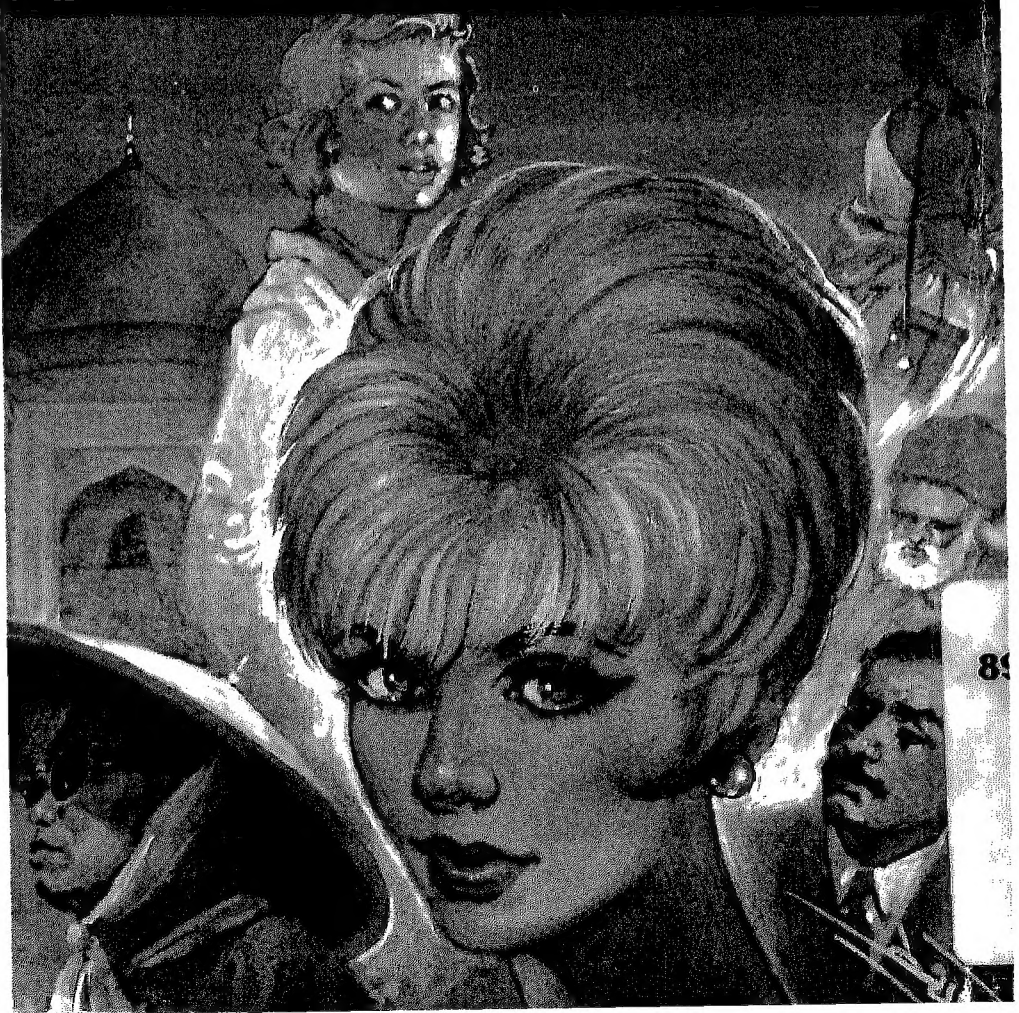


مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

روائع الأدب العربي
الأعمال الإبداعية

جمال الغيطاني رسالة في الصباية والوجد



رسالة في الصباية والوجد

رسالة في الصباية والوجد

جمال الغيطاني



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(روائع الأدب العربي)
(الأعمال الإبداعية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

لوحة الغلاف

للغنان جمال قطب

الإنجاز الطباعي والفني

محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

أما بعد،

اعلم يا أخى الحميم، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده،
أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى، وما
شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب على كتمانها، اقترن
فيها قريبي ببعدى، واتصالى بانفصالى، وخلف أمرى بتوفيقه،
وتبادلت جهاتى المواقع، حتى قوى على الشك أن ما جرى،
جرى، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة، وتكرار
الظهور بغير معاينة محسوسة، بعد انزواء جل العلاقة فى
مجرد عبق خفى مستور بالحجب، فلو أفضيت بما عندى بعد
اكتمال الأوبة، واستقرار العودة، لولحت إلى ما توالى على،
ما صدقنى الأقربون، حتى وقع عندى شتات بين إقبالى على
من أصل أسبائى بهم، لأبوح وأسفر، وتوقى إلى النأى
والصمت وطى صحفى، هذا ما غلب على، خاصة مع بعد
الشقة، وانتفاء المحط، وشحط الرؤية، وانعدام المجاوية على
رسائلى. وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى، ووهن دقات

الساعة الخزفية التي أودعتها بين يدي. والأصعب الأدهى،
انتفاء الإمكانية، أحيانا تهدئني الرؤى، غير أنها تتبدد، فلا
يتبقى إلا قفر المفاضة، وغول الطريق، فأنتنى ململما فؤادى
طاويا دخائلى، خشية أن يتبدد ما تبقى، وعندما بقيت مدة
مههددا، منهكا، مدمدما بالوجد، متخففا من شغاف الوهم،
لقيت الحمل ثقيلًا وإن لم ير، والطوق محكما وإن لم يلتف، لذا
أقدمت على التدوين إليك مع أنك قصى، بعيد عنى؛ لكن يشفع
لى عمر انقضى قرب بيننا، جعلك كائى، حتى لو عسرت المودة،
وانفرط العقد، وتباعد الشمل، وندرت اللقيا، بقيت أنت كالجهة
التي لا تدرك بالحواس وإنما يتوجه المرء إليها، هكذا وليت
يهمى صوبك، لعلى باسترجاع ما تبدد، وروايتى لما يخيل إلى
أنه جرى، أقف على توكيد يطمئننى، يرسخ الحجة عندى،
فاحتملنى يا أخى وإن أطلت، ولا تذرنى إن أثقلت، ولا تنصرف
إن فصلت، ويحق العشرة القديمة، تلمس لى العذر فى شدة
تهيامى.

ديهاجة الظهور

... اعلم يا أخى أولا سبب مجيئى إلى ديارها، ونزولى
بلادها، أقول - أدناك الله من مبتغاك، وحقق لك مطلوبك - إننى
ما جئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر، إذ دعانى القوم
 للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على
المباني العتيقة، وترميم ما تصدع منها، وما يتهدده البلى، وهذا
لب انشغالى منذ ريع قرن وعدة من سنوات آخر، ولى فى هذا
المضمار قول وصولة وتجربة، ألقىت بحثى، أبديت وجادلت
نفرأ قدموا من بلاد شتى، جئت برفقة واحد ممن علمونى
المعمار، وأضاعوا لى أسرار البناء، أحالوه إلى التقاعد فى
موطننا، غير أنه لم يركن، ولم يته الخطة، تراه فكأنه سيبدأ
تحصيل المعرفة لأول مرة مبديا حمية وحماسا أوليا ولطف

تديبير، إذن، جنّت موطنها ضعيفاً، غريباً، محدود الإقامة، مدتى مبيّنة، مثبتة على وثائق سفرى، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفاً، أنى منقلب حيثما جنّت، هذا إدراك مدبب فى وعيى، ويرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عابى، كاشطاً الصداً عن مغاليق طال إقفالها.

ستسأل، متى بدأت الرؤية؟ متى تحقق نظرى منها تمكن؟ والله يا أختى ما من إجابة دقيقة، ما من تحديد، لو قلت لك إنها قديمة عندى، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه، فلا تكذبنى، وإن أمرها بدأ معى قبل مجىء موطنها هذا فلا تنح كلماتى، وإن قلت إننى ما قطعتم زمنى المنقضى إلا ماضيا تجاهها، وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر، وانتشرت الشهب، وامتزج المبتدأ بالخبر، فلا تتكى على. وإن قلت لك إن هذا الكون بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمنى بالشطط !.

المقطوع به فى عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذى أجيئه أول مرة، أين هذا الماضى المولى كله؟ لا أدرى، يقينى أيضا أن عيني وقعتا عليها فى الفندق الكبير، حيث نزلنا واجتمعنا، لا بد أنها راحت وجاءت . تمهلت أو مرقت ، غير أننى بقيت غافلا، فلم تكتمل كينونتى بعد، ربما لأن الجمع كثير، والذهن مشغول بأمور شتى، لكننى أنثنى وأقول، إن هذا غير دقيق، فكدى لم يكف، ولم يخفت أبدا. اعلم يا أختى أن

الظهور الذى أعنيه، له حين مقدر، جريت هذا وعرفته، حدث منذ عشرين سنة مضت أثناء تدريبي بمركز علمي، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى مكتبها، أبادلها التحية وأمضى، إلى أن لاحت لى بعد طول استتار، بدت فجأة، توهج لحظها وألق عينيها، وشوارد مفلتة من داخلها المضى، فانتبهت، وبدأت سعيي، متعجبا، كيف غفلت عنها؟ كيف؟ وفي ظرف آخر، جاءتني بنية هيفاء، رحيبة، ولحظة دخولها الحجرة نفذت مباشرة صويي، وصار بيني وبينها شأن، ثم انقضى الوقت، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها فى مفتحتها، وهذا أمر له تفصيل، لعلى مورده فيما بعد. اعلم أنه ما من بداية تشبه الأخرى، منها ما يحاكي ظهور الطل، ومنها ما يشبه تدفق السيل المياغت. أما هذه البنية فلاحت لى شيئا فشيئا، قبل ظهورها فى هذا الصباح المبكر.

صعب على التحديد، مع أن يقينا يداخلى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة، أننى لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتي، أجوس خلال ذاكرتى متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدي ثم انطوى، ولى، وخلف عندى البين والوجد، بعد انتهاء المؤتمر، سافرنا فى طائرة معا مع بدء الرحلة إلى أسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ما شيده الأقدمون، ضمنا هذا الفندق فى الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات، ولجنا القاعات، ركبت العربة التى أقلتنا من المطار إلى مأوانا، جلست بجوار صاحبي، ملصقا وجهي بزجاج النافذة، متلمسا معالم المدينة التى لم أتصور أننى بالغها يوما، يمكننى تحديد اليوم، ثلاثاء، يوم من

أيام هذا الكون، عند الفجر صحت مبكراً، عندي تأهب غامض، وشعاع خفى من وهج، شأن المقدم على رؤية مالم يخطر على قلبه أو باله قط. قمت وبدايات الضوء الأسيوى تنفذ عبر الواجهة الزجاجية، أزحت الستار، تطلعت إلى الملامح التي لم أتبينها عند وصولي ليلاً، جلت ببصرى عبر الحديقة، لم يوهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها، أما رد فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق، الملتف، الململم، فكان تنفسا عميقا، هذا شجر لم أطالعه إلا فى منمنمات المبدعين الأقلين من أبناء الناحية، عرفت العديد منها، ودرست ما تضمنته، وأطلت النظر إلى توقيع خجل، متواضع، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع، اسمه «بهزاد»، إذن.. هذا شجر توليب، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى، منبسطة تحت الفراغ الشفقى، ومن هذا الحد بدت، فى الصباح الأسيوى تجول، تسعى، لم يكن إلا هى، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر، تنثنى حتى الحد الأيمن، أنثى، فارهة، ياسقة، لها طلع، تفسح خطاها ما بين شجرتى توليب بعينهما، لم أدر، هل قامت منذ أزل قديم، أم نبتتا مع مجيئها؟ ترتدى معطفاً رمادياً طويلاً، سافرة الشعر، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل، مناخ تلك النواحي مختلف عن العاصمة التي قدمنا منها، اعلم يا أختى أننى بدأت معراجى ببصرى صوبها، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى، لم أدقق ملامحها، فالبصر كليل، والمسافة غير مساعدة، تردد عندي وجودها، وصلنى

تأثيرها فى هذا العالم، انبثاق حركتها ما بين الشجرتين الفارنتين، لماذا نزلت مبكرة، أتكلم رياضتها اليومية؟ أهذه حركتها المعتادة فى مثل هذا التوقيت؟ هل رصدت قلقا فى إيقاع خطوها؟ ربما، ساحت داخلى بهجة لم أعدها منذ زمن، وتفجر عندى بشر كالزمن الأول، ولعلك تذكر رسالتى التى ضمننتها أسباب ضيقى واكتئابى. ويده اندحارى بعد أن قمت من مرضى، أرجع إلى مادونته إليك، وأعد قراءة ما سطرته لك، لتدرك لب مقالى، وأى حد كانت عليه أحوالى؟

خطر لى أن أفارق غرفتى، أن أهرع فألقاها، أن أقف أمامها، وإن لم أنطق أو أوجهها بالصمت والسكينة، لعلها تدرك عنى. لكن.. ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ، حاد بصرى لحظة، وعندما عاودت النظر رأيت الإطار وغاب عنى المضمون، فتحت النافذة، هواء بارد قاسٍ، إذن فالشتاء هنا شديد. مددت البصر، لم أرها، عدت إلى وحدتى، مغمورا بالرؤية، بالنفاد، الآن يا أخى وأنا أتم تدوينى هذا أكاد أثق من رؤيتى لها قبل ظهورها، قبل انبثاقها بين شجرتى التوليب، لكن أين؟ هذا مالا أقدر على تحديده، متى؟ ذلك ما ليس عندى منه يقين. فى مدخل الفندق لم أرها، أما المطعم فكان خاليا منها، كيف أيقنت أنها تنتمى إلى جماعتنا مع أنى لم أرها إلا عن بعد؟ لا أدرى.. طوال إفطارى تعلق نظرى بالباب، لم أرها فى ثباتى، لكننا عندما اتجهنا إلى الحركة لمحتها، تتأهب لصعود العربة التى ستقلنا إلى الجولة، من مقعدى سددت البصر، قعدت بجوار

معماري من الهند، عندما استقرت حلت عندي سكينه. أمكنني الرحيل بنظري هنا وهناك. مطمئنا إلى وجودها قربي، أمر بشعرها الطويل نافر الخصل، أتابع تدفق الطرقات، ما أراه أطالعه أول مرة. والأرجح أن عيني لن تقعا عليه أبدا، أدقق اتجاهات المباني المشيدة كلها في أوقات متقاربة بعد وقوع الزلزلة المهولة منذ حوالي عشرين عاما، خطوط صاعدة، أقواس تؤطر الطوابق العليا والمداخل، الأصول النائية عريية، تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة صوب الفراغ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلني عن طشقند هذه، كنت أبحث عن شيء لم أجده، وأترقب أمرا لا ألقاه، أما ما شغلني فأرنو إليها خلسة، والشروع في الاقتراب كيف؟

ترجلنا في الساحة الرئيسية، هواء صارم، قادم من أقاص بعيدة، خطوت تجاهها، تمكنت من جانب وجهها الأيمن، أيقنت أن أمرا قديما بدأ ينفذ، في المعرض أبطأت الخطى، وأفسحتها، اقتربت، نأيت. هي في حركة وأنا في حركة، كان دنوي منها يتم خلال ديمومة، اعلم يا أخي أنار الله برهاتك، أن الأقدمين قالوا إنه لا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة، وندرکه نحن أرياب المعمار، هم يتقنون تأليف النغم، والنغم لا يكون إلا بالأصوات، وتلك تحدث بالتعاقب، بالتوالي، بالحركات التي لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها. بين زمان كل نقرتين زمان سكون، هكذا قالوا، وأقول أنا، ذلك شأن المعمار،

فالبناء لا يتم إلا فى فراغ، والقيام فى الفراغ حركة، يبدأ من ثبات الأرض البادى ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات، عند طوافى حولها كنت مزفرفرا، حائما، لكن لى أويقات سكنوى، أولى فيها البصر بعيدا، ثم أنتنى مستوعبا ملامحها على مهل. ما وقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على شموله أو استيعابه مرة واحدة، شأن من يحسو شرابا رائقا، مسكرا، فيرشفه متمهلا. متمنيا ألا ينفد، لإطالة المتعة، والتمكن من القدرة، ربما نعم لهذا كله، وربما لا، غير أن ما أعرفه، أنتنى عند خروجى من بوابة المعرض، رأيتها، بمفردها، يداها فى جيبى معطفها، تماما كما كانت تدسهما أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتى التوليب، لم أتقدم، إنما دفعت من داخلى، لم أتجرا، إنما بدأ فعلى قبل قرارى، وحركتى قبل عزمى، ابتسمت مشيرا إلى آله التصوير.. تسمحين لى بصورة؟

لاح نبأ ابتسامه من شفيتها المزهرتين، مدت رأسها هنة إلى الأمام، قالت بركة....

- ليس الآن من فضلك

يكن بوسعى إلا الانحناء، والانسحاب بعيدا، كلا يا أخى لم أرتد خائبا، فما لقيته ليس بصد، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد، لم تنهرنى، لم تقطع، بل تضمنت كلماتها وعدا، أما عن تراجعى فهذا أفضل، ربما لأننى طفت ما بين عينيها، ونزلت بعينى لحظات عند قسماتها، ملامحها وثيقة الاتصال. إذا

ابتسمت مرحبة أشرق فى عينيها طيف حنينى، وإذا تطلعت
متسائلة وقع التلامس بين شففتيها، والتقوس من حاجبيها، وإذا
تدفقت منفعله فكك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست
متجاورة. وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية
للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة فى الوجنتين
الثريتين، الحادثين كالخبر المفاجئ.

حتى العصر عاودت دنوى منها ثلاثا، وفى كل مرة أقول
مبتسما.. لا تنسى الصورة..

فيجىء التطمين، والوعد، لكن ملامحها لم تأذن بعد. اعلم يا
أخى أننى اعتبارا من هذا العصر، من توجهى الأخير إليها لم
أعد أتحرک فى المطلق، كل خطوة عندى تجاهها، وأية إشارة
من يدى هى المعنية بها. وعند أى نطق، توقع أنها تصغى إلى.
ولو بدرت التفاتة منى فيقيني أنها ترقبني، ولو تحركت على
مرأى منها، أو تحدثت بقربها، أو جلست صامتا، فإننى أضمن
حركتى وصوتى وسكونى رسالة إليها لعلها تتلقاها، لم يعد
الوجود مطلقا، ولم تعد الكينونة مفرغة أو بلا غاية. بل صرت
دوارا فى فلکها. من توابعها، كان مرورها يكتمل عندى،
جازت، فانت حواجز شتى، وموانع قديمة، وسنين مثقلة.
وهموما متراكمة، وأرصادا من الحزن قائمة، فكت أرسادا،
وحلت طلاسم، وفسرت رموزا استعصى على إدراك كنهها
عمرا، أقول لك قولى هذا، وما من حوار بيننا اتصل. وما من

تقارب مادى بدأ. لم أعرف بعد أن اسمها فاليريا، وهذا حال
ياصاحبى جديد، سأبسطة لك وأشرحه، على أفسر الأمر
لنفسى قبل أن يكون لك، هذا حق يا أذى والله، فبقدر ما هى
محدثه، بقدر ما هى قديمة، موغلة، كنت مجروفا صوبها، وما
من صاحب أو معين..

قرب الغروب، قبل رحيلنا بساعتين، قاصدين بخارى، أقيم
حفلى صغير، خطب البعض، وتكلم مهندس من بيرو عن
الصدائة بين الشعوب، وتحدث البناء الهندى بلغة الأوردو، وقام
صاحبى فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب
المستقبل، التقط آخرون صوراً، لكننى كنت نائياً، ما تم ترتيبه
وما قيل ليس إلا الإطار الأتم لوجودها قربى، اكتمل انفلاتى
من الزمن بعد أن صار لى توقيتى الخاص القادم منها، شيئاً
فشيئاً تصبح محور تقويمى، ولب شدى وجذبى. حتى إذا
انتهت الكلمات. دخل شابان من أهل الناحية، عيونهما أسبوية،
وصمتهما باد، يحنو أولهما على طنبور. ويجلس الثانى إلى
سنطور، اثنان يا أذى اثنان لا غير، لكننى لم أتصور قط أنهما
سيفجران حزناً معتقاً، ويستنزلان أنينا كونيا بمجرد أن يجرى
الأول قوسه ويداعب الثانى أوتاره، أصغيت إلى خلاصة
الشجى المتوارث، إلى لب العويل النائى، إلى قدح الشرر الناتج
عن عدو خيول التتار الغزاة، إلى الأسى على بنيان قام ثم
تهدم، وفراق قسرى جرى، وتباعد آلاف عاشوا معا. هذه
مناطق عبور، أقدام شتى دهستها. اعلم يا أذى أن ما انقضى

عند الآخرين باق داخلى وإن استتر. ما لم يره غيرى أوليته
عنايتى، ولأن هبوب الصبابة بدأ، لأن النذر لاحت لأنها على
مقرية، لأننى على مرأى منها، اجتاحتنى نسيمات البدايات، ملت
تجاه العازف، مورجت يدى اليمنى وأشرت باليسرى، حتى إذا
جلا عازف السنطور أوتاراً، وفض أسراراً، وأطلق نغيمات طال
احتجابها. تحرك على الشجن المكوم فى أغوارى فتأهبت
للإقلاع، فلم يعد ما يحيطنى بقادر أو كاف أن يحتوينى، كدت
أو شكت، لكن ما جعلنى أحجم إلى حين، انسياب بنية قدت من
أطياف ورؤى، منمنمة، دقيقة التكوين، عصفور تخلف عن
سريه، أو خلى حرد بعيداً عن أهله، واحدة من بنات الأوزبك،
متدثرة بغلالات من زمن سحيق، لم تفد علينا من مكان، إنما
جاءت من حقبة تلتوها أخرى حتى حطت فى وقتنا تبتسم
للكافة فى وقت واحد، فهى هنا وهى هناك، هى عندى وعندها
وامامهم، مست يمين القاعة ويسارها فى وقت واحد، بسطت
حضورها وللمتة، لم يكن رقصها أداءً حركياً تلميحا
وتصريحاً. شرحاً ومعنى، على شفيتها ابتسامة فرحة بنجاة
من أهوال تاريخ سحيق، كان يمكن ألا تفيض حيويتها تلك لو
أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد فى غزوة. أو فنى فى ويا، هذا
حالى أيضاً. فلو لم يتعاقب أسلافى لما وصلت إلى لحظة ألقى
فيها تلك البنية. طق عندى شرر الفرغ، البهجة الغريبة لأسباب
شتى. لإدراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق ألقيت
فيه منذ مرضى وما أورثنيه من إعياء وتدقيق فى الحساب.

ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتني مرات يا أخى، حماك الله من السوء وأقصى عنك النوائب والمحن. ما أصفه لك لحظات لم أعد لها العدة. ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئى الرحلة، إلا أننى عزمت على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى المطبق بالعموم، طافت البنية الأوزيكية ملامسة اليايسة بأطراف أناملها، حتى دنت وتمهلت وكنت أول من أشار إليه ليشاركها، قمت غير خجل، بسطت حضورى وأشهرت على الملأ وجودى، تبعتها فكنت الظل الوارف لأضل بديع. درت حولى، حتى إذا وقعت عينى على من أحوم حولها، وأتقرب من مشارفها، سكنت، أو قل أخذت عنى، هى متطلعة إلى، مبتسمة، متجهة إلى بلامحها المتسقة الصريحة، تجاور الرجل الهندى، ومهندساً، سويدياً، تتوسط قارتين، حزمت أمرى، للمت حالى، قطعت المسافة الفاصلة، خطاى غير معهودة أو مسبوقه لا منى ولا من غيرى، حتى إذا واجهت ملامحى قسماتها، ولم يعد الفراغ الذى يفصلنى عنها كافياً إلا لمد يدى إذا شرعت فى المصافحة، فردت قامتى تأهباً، وتمنيت لو أن جذعى ساعدنى، لو أن لياقتى واتتنى حتى تبلغ انحناءتى حداً لم يبلغه إنسان قبلى، وعندما اعتدلت حدقت مباشرة إلى عينيها، فى وجهها الذى اكتسى خجلاً، رصدت طيف سرور فاستبشرت، هكذا بدأت مراسيمى، وأنبأت باكتمال أوراق اعتمادى، ملامحها الرحبة لم تحو استنكاراً أو نفوراً، غير أن دهشة خفيفة بدت، إلا أن ما أعاقنى عن التتمة تصفيق القوم، يحيون إقدامى، لم

أت أمرا فريا، إنما أسارع إلى المجاهرة، فالزمن غير مساعد، وعلى قدر المدة تكون العدة، ولو أن أيامى ممتدة فى تلك الديار لتمهلت الخطى، لكننى الآن مرغم، فما يمكن الإفصاح عنه خلال أيام وأسابيع على إنجازها فى دقائق. وتلك الروابى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر، عدت ألزم مكانى، مال على صاحبى، أو قل أحد أساتذتى. قال إننى كنت صادقا فى تعبيرى، تطلعت إليه، ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة. تأهبنا للانصراف، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة، قعدت إلى بيانو عتيق، اخترت أوتاره، بعثت أناملها أنغاما متسقة، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتنا، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد، بعد إيابى من رحلتى، وتأملى الصورة، اكتشفتها، عجبت، أين كانتا؟.. ولكننى أدركت أننى لم أر إلهى، ولم يستوعب بصرى إلا طلاتها وطلعتها، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى، لم تبد ممانعة. إنما مال وجهها ناحيتى، فأسفرت عن زاوية لم أعدها منها أثناء تطلعاتى، أظن أنها قالت: تعلمت العزف فى الثامنة. رداً على استحسانى، وأظن أنها قالت: الموسيقى لازمة للمعمار..

اعلم يا أخى أننى أثرت الظن إذ يصعب على التحديد، إذ لقيت نفسى فيما بعد أمغر وأحن، أستعيد أموراً لا قدرة لى على تبيان كيفية وصولها عندى، فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالمحاوره، أو بالنظر، بالنطق أو الصمت، بالإيماء

أو التصريح، حتى الوقائع تغمض على، ومن ذلك معرفتي لها عند ظهورها بين شجرتي التوليب، إذا أستعيدها الآن، أوقن أنني كنت أعرفها من قبل، وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى، لكن متى وكيف؟ هذا ما لا ألقى جوابا عليه، صدقتى..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لا يدخل فى نطاق الوعى أحيانا، خاصة إذا بدأ التواصل، وشرع فى التوالج، عرفت ذلك، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف بينية هيفاء، دقيقة المحيا، أجهل لغتها كما لا تعرف لسانى، عدا كلمات معدودات من الفرنسية، دامت الصلة أياما سبعة، فى نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقاق عنها، وكانت تعرف عنى، هذا ما أحتاج إلى فيض لتفسيره، وإنى مورد أمرا لطيفا أقصه عليك... إذ حدث أن وقفت يوما فى صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة، عندما دخل رجل أجنبى يتحدث الألمانية، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجاوبة، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية، توقف بدافع من فضوله، أو رغبة فى المساعدة، فوجئت به يحرك يديه، ويشير بأصابعه، ويهمهم، ثم ينقل إلى وعنى، أخبرنى عن هوية الرجل، واستفساراته عن المبنى، وهذا مما حيرنى، حتى جريت فلقيت الوسائل شتى والسبل عديدة. أرجع إلى ما أنا فيه، إلى من صارت محورى ولب قصدى، فأقول إنها جاوبتنى بما قلته بعد استحسان عزفها. خرجت من المبنى، لحقت بصاحبى. استنشقت هواء باردا، حوائجنا فى السيارة، اكتمل تأهبنا للإقلاع صوب

بخارى، إلى الزمن المطوى، لطالما قرأت عن مدارسها، عن قيامها وأفولها، ثم انبعاثها، طالعت صور قبايها، وأسواقها، وعقود مبانيتها، وتصميم قلعتها، أمضى إلى المدينة العتيقة وقد بلغت مدى بعينه، ألم تجاوبنى، ألم تواجهنى باسمة لاح منها مالا يمكننى إغفاله، أليس بداية الضوء وهن؟ رسول الغيث قطرة، أول السعى خطوة، إذن، لا يبقى إلا العزم، ودعاء بإقصاء بغتات المقادير..

مساق المسلسل

... يا أخى، أجيح الله توقفا من يحبك إليك. وقربك ممن تهوى، وقوى يقينك، وأعانك على سعيك، اعلم أن رحيقاً عذبا سلسبيلا بدأ يسرى عندى، وإنك لعالم بحالى القديم، وعندي الرغبة أن أحدثك عنه، لكننى مرجئ ذلك، فلأن الظهور اكتمل، على المتابعة، اعلم يا صاحبي أن اليوم الذى شهد تمام تجليها فى تلك المدينة الآسيوية، اقترن بحدث، إن بدأ منفصلا إلا أنه متصل. عند بدء رحلتنا، وقبل ديارنا، جاءت ابنة صاحبي مودعة، انتحت بى ركنا وأسرت أمرا، أخبرتنى أن عيد ميلاد والدها سيحل أثناء سفره، سيكون هو فى ناحية وهى فى ناحية، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه. إن هذا سيسعده جدا، قلت لها ألا تقلق، إنه ليس فى موقع الأستاذ

منى.. إنما صاحب، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال. تقلبت فيها الأمور، وشهدته يخوض حرباً ضد لصوص المقاول، ومن يفسدون الذوق السليم، لا محرك لهم إلا جشع الربح، غير عابئين بأحوال العباد. وللصحة عندي يا أختي منزلة أكيدة، كما أنني أضمر له محبة، فهو ممن مدوا لى العون وقت الشدة، وبخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق، ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا، ولهذا تفصيل يطول، أقصر عنه خوف الإملال. عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا الروسية عن مكان لبيع الزهور، أفصحت عن غرضى، وعدت أن تدلنى، نصحتنى بتقديم عدد فردى، خمس زهرات أو سبع، قالت إنهم يتفائلون بذلك فى هذه البلاد. أما إذا وعر الطرف وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية، وهذا غريب على، أثناء تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناظف فوقها سلال الورد، وأصص من الخزف، مددت الخطى، ابتسمت المرأة العجوز، تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية. تناولت سبعا، فى نفس اللحظة تقدمت مرافقتنا، وعندما لمحنى معمارى من الجزائر العربية خطأ صوب الزهر، لم أعد بمفردى، أبدى الرجل تأثراً، تساءل عنم أطلعنا، ثم تدارك قائلاً: لابد إنها ابنتى. احتضنته مقبلاً، تبعتنى الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير، وأعقبنا الجزائرى، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين، حتى فرغنا، فتقدم نحو صاحبى.. الكولومبى، والهندي، ورسام سنغالى، أما هى فقد أقبلت

منتسمة، حيث وهنأت، كان ذلك أول النهار فى طشقند، ومع
 -سالم المساء حللنا بخارى، تبدل الوقت، بحساب الساعات
 ينقص واحدة عن طشقند، وثلاثا عن موسكو، وأربعا عن
 قاهرتى، أما بمنطق الدهر فلا حد، بخارى يا أختى لها رجوع
 عندى قديم، من المدن التى ظننتها بمنأى، خارج المتناول لشدة
 البعد، وانقطاع الظرف المساعد، كما ارتبطت عندى بجمع من
 القوم النابغين، ونوع محبب إلى من الأبسطه النادرة، ألوانه
 أصلها واحد، الأحمر ودرجاته، العقيقى والياقوتى والشفقى،
 أما زخارفه فهندسية. مستطيلة، متقاربة، متباعدة، شأنى مع
 ذاتى، مع من أحببت، بها شبه من نوافذ تعد ولا تفصح، أما
 الإطار فمحكم كالظروف المقيدة، نزلت بخارى، فجلت بنظرى
 عبر فراغاتها، كان حضورها مدججا بالماضى، جنناها ليلا قلم
 تكن المعالم بادية، لا تفصح المدن عن مكنونها للغريب فى
 العتمة. تجدها مضمومة، غير منبسطة، حتى إذا انفردت
 بنفسى فى غرفتى، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى جئت
 الديار يوما، وأننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زما لم
 أعشه، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه، غير أن
 حضورها القصى دعانى، ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى. كنت
 نادما على أية دقيقة تضيع دون أن يقع عليها بصرى، أسرعت
 إلى المطعم، لمحت صاحبى قاعدا وبجواره مرافقة الجم
 والمعمارى الجزائرى، وأستاذ فى هندسة الجسور من سي
 جلت بنظرى لأحدد مكانها، لم ألمحها، غير أنها لم تتأخر،

ولجت القاعة مبسقة فارهة، لا ترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى، ترتدى قميصا من الصوف، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات متداخلة، أحمر صريح، وأبيض ناصع، وأسود قاتم، القميص فضفاض ينسدل على كتفها، أما بنطلونها الأخضر القطيفى المضلع فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى، بلغنى حضورها الحسى القوى على البعد، وإن لم أقف على شواهد، ولم أمس تخومه، قعدت بالقرب، يجاورها الهندى، ومعمارى من بيشاور، راحت تتابع رقصا عذبا، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية، كنت أحوم وأحط عندها، إما بنظري أو حواسى الأخرى حتى جرى مالم أتوقعه، توقفت العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم، وعندما استدارت لتواجهنا، فوجئت بلحن يمت إلى ريوعنا، أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه، إلا أنهم غيروا، فكان اسم صاحبي بدلا من اسم المحبوب، غمرتنا بهجة إنسانية، وقفت محيا مرافقتنا التى دبرت ذلك. بانث السعادة على وجهه وكان ذلك من أطف ما مررت به، فى غمرة الود بسطت يدي داعيا، ردت بابتسامة، ابتسامة لم أعهد مثيلا لها، إن جاز الوصف فهى رحبة، دالة، مدلة، عند طلوعها من أفق ثغرها تضىء وجنتيها، ثم تترقق فى عينيها، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ما حولها، يشع عبيرها، فيه قيس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا، قمت، تقدمت منها، أشرعت ودى قلبت، نظرت إلى رفيقيها، قاما يتبعانها، خطت فصافحت، اتسعت الجلسة فشملت،

واجهتني فأتيح لي طول التملی، أدركت يا أخی أننی علی وشك
الإقتراب من مشارف لم یسبق تعيينها، لكننی متأهب لحط
رحلی. لإقامة مضاربی، للخروج علی الناس بادنا عرضی،
كنت موقنا أن لون الدماء یتغیر فی عروقی، وأن روافد نهر
قلبی تتخذ مسارا جدیدا، كذا نبضی، وحواسی كافة، هنا لا
أجد مفرا من الوقفة، حتی أطلعك علی بعض مما وددت ورغبت
تفصیله لك، فكثیر من أموری لم تحط بها علما، بعد أن باعدت
بیننا الظروف زمناً، واغترب كل منا، أنت فی سعیک، وأنا فی
مقامی..

تفصيل

.. اعلم يا أخى، جنبك الله المحن، وأقصى عنك الشدائد،
 وخفف هجيرك. أن ماء فيضى كان قد بدأ غيظه منذ زمن،
 وأن شحاً أدرك دفتى، وأن أوصالاً تقطعت عندى، وكثيراً ما
 قرأت شكواك من الغرية، ولكنك لم تدر وأنت تبثنى همك أننى
 مغترب مثلك، وأوعر النفس ما كان فى محل الإقامة، وأوحش
 الوحدة ما كانت فى الجمع. أقول يا أخى إن الأسباب تجل عن
 الحصر، منها ما تعرفه، وما تجهله، منها ما سأذكره لك،
 ومنها ما لا أقدر على تقييده، تكفينى الإشارة، تعلم يا صاحبى
 أن الظروف لم تكن قط سهلة منذ البدء، وقد ربينا معاً،
 ودرجنا، وأحببنا وخططنا لتحقيق الحلم. لكن الظروف لم تكن
 مساعدة، لست بحاجة لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية،
 وهذا التدفق، وتلك الحيوية، كان الحذر نائياً، والبوح من
 خصالنا والمجاهرة، والشعور أننا نتحمل مسئولية إصلاح هذا
 لعالم، وأن مصائر شتى أقدارها حول أعناقنا، وأن أهلاً لنا
 ير قادرين على إسماع أصواتهم لمن بيدهم النهى والأمر،
 حل والعقد، أثرتنا أن نوب عنهم، لن أستعيد أيام المعتقل،
 لما أفضت فى سرد أحداثها. وما جرى لنا فيها وما
 بيناه من وحشة وعزلة، وإرغام قسرى لنفص أختامنا، هل
 صدقنى إن قلت لك يا أخى إن أيام السجن تلك تهون عند
 كرها إذا ما قورنت بأيام كنت فيها حراً، طليقاً، لا أسعى

على هواى داخل موطنى فحسب، وإنما أسافر إلى بلدان شتى، أيام إدراكى بأن ما يجرى مهول، وأن التدهور يتم بأسرع مما نتصور، وأن التغيير إلى الأردأ والأسوأ يلقي المساندة من قوى تفوقنا بكثير، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة بين من قدرهم التصدى والمحاربة، وأصعب ما يواجهه إنسان، إن يلقي نفسه وحيدا فى مواجهة عنو طاغ، ولا مبالاة جارفة، وفساد شامل، فيدرك ولا يفعل، يعى ولا يتحرك إلا بقدر إن استطاع إلى ذلك سبيلا، والله يا أخى لم أتقاسم قط، إذ شاء حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية، عند الأقالص، وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى، حتى حلت سنوات العقد السابع فتدنت الأحوال، وتقهقرت الأمانى، وتقلصت الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى، صار همى أن أقيم المرصد والقلاع على عجل، حتى يبقى الجوهر سليماً، والنواة بمنأى، كلفنى هذا الكثير يا أخى، حتى جرى لى ما سمعت أنه جرى لآخرين وظننت أنه لن يطالنى قط، وإنى لقاص عليك واقعة لم أخبرك بها، ولم أفصلها لك. ربما لأن الفرصة لم تسنح لقلة لقاءاتنا. وتباعد المزار بنا، تعرف أننى خبرت عللا كثيرة، وأمراضا، غير أن ذهبنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا بنا المرض من حد الخطر، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب مضى إلى طبيب يداوى النفوس أسخر فوراً. هل تدرى أن الأيام مرت بى حتى سعيت ذات غروب إلى واحد منهم. كان ذلك قبل سنوات تسع من اكتمال ظهورها فى مدينة طشقند النائية بين شجرتى التوليب، فى هذا العام، ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، ضاقت على الأرض بما رحبت. وبدأ الوضع الجاثم أصعب وأثقل من أن نبذله فى ملح البصر كما نرغب،

فى تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة على، والظروف متكاكئة، كنت بين النوم واليقظة عندما قمت فجأة قاعدا فى سريرى، اضطراب غريب فى أمعائى لم أعده وأوعر الألام ما كان غير مسبوق. بدأ هبوط لين. دقيق. لكنه مخيف، مدجج بالندر، بدأ ارتجاف أوردتى، ونفور نبض قلبى، الأدهى والأمر وعيى المكتمل أن النهاية ستتم بعد دقائق، بل قل لحظات، وهنا لى وقفة، فريما حان أجلى بعد خمس ثوان من تسطيرى هذا، لكننى مادمت لا أدرى فما من جزع أو خشية، أما لو علمت الآن أننى سأقضى بعد خمسين عاماً كاملة فى يوم بعينه وساعة محددة، أؤكد أن حالى سيصير نكداً، سأحصى كل لحظة ما تبقى، أقول قولى هذا وأنا واثق بأن ما تبقى أقل مما انقضى، وأن ما صار ورائى أطول مما سألقاه أمامى، وإنى لمحتك يوماً عن القضاء والقبض فى رسالة أفردها خصيصاً، إذ شغلت بالأمر جداً منذ هذه الليلة، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً، راضياً، حتى لو أن أجله سيحين بعد دقائق. لا تدرى نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت؟ وهذا من أجل النعم فانتبه!

دهمنى فزع، صار حضورى كرياً، غزائى فزع أكبر، تزايد وعيى بأن ما تبقى لى مجرد ومضات، أننى سأقضى هنا، أن زمانى انتهى، وهنا بزغ عندى الهرب، أن أولى فى الأرض لعننى مفلت من اللحظة، مع تمام علمى ويقينى أنه يدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند، وتلك حكاية طالعتها فى كتب الأقدمين، وإنى لقاها عليك..

حكاية دالة

يحكى أنه فى ضحى يوم، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه يحيط به الإنس والجن، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا مضطربا، قال لسيدنا سليمان الحكيم:

- «الحقنى، انقذنى يا مولائى».

تعجب سليمان متسائلا:

- «ماذا بك؟»

قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك الموت، نظر إليه شزرا وبدا حائقا، غاضبا، منثرا بالشر، تملكه رعب، أدرك أن أوانه دنا واقترب، لذا يرجو سليمان الحكيم أن يأمر الريح بحمله إلى الهند، إلى أقصى أرض هناك، حتى ينجو من الموت.. رقى سليمان له. أمر الريح فحملته فى إغماضة عين إلى الهند.. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه سليمان قائلا:

«تسببت فى غربة أحد رعيتى ونأيه عن وطنه، لماذا نظرت إليه
غاضبا عندما قابلته، لماذا أرجفته؟»

قال عزرائيل..

«لم أنظر إليه غاضباً، إنما نظرت إليه متعجباً، لأن الله أمرنى
أن أقبض روح هذا الرجل فى الهند، فلما رأيته تعجبت.. كيف
سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات؟..»

رجعى إلى ما انقطع

.....

- فزعت!

هرعت إلى أقرب باب إلى يئدى إلى الشرفة، اتجهت إليه،
وعندما شرعت فى اعتلاء السور أدركتنى والدتى، أيقظها
حسها الأمومى وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج،
كنت أبغى الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة،
حاشتتى، صرخت فدب فى وعى الروح الحافظة، انثيت إلى
الداخل مبتلا بعرقى مرددا..

مازلت أحياء.. مازلت أعيش..

فى عصر اليوم التالى قال لى الطبيب المداوى إن القلب
سليم، وإن علاج العلة يختص به أطباء النفوس، هكذا سعيت

بقدمى إلى أحدهم، أصفى، دون ملاحظات شتى، ثم أطلعنى
 على ما خفى على، ما ربي أعراض اكتب شديد جاثم على.
 وصف لى أدوية ونصحنى بخطة، أن أغير مسارى، أن أبدل
 الإيقاع، هذا ما قاله لى، غير أن ما أدركته تلك الليلة، ما لم ينفذ
 إليه هو، ما لم أفض به حتى لأمى، ما لم أبح به من قبل، وعيى
 أن احتضارى بدأ هذه الليلة، علمتنى التجربة والاطلاع على
 أحوال الآخرين، أن البعض يبدأ احتضارهم فى الثلاثين أو
 دون ذلك، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين، إلى السبعين، وفيما
 تلا ذلك عرفت أعراضا شتى، نمت أحيانا وعندى يقين أن
 النهار لن يطلع على، قمت فزعا من نومى، خشية الموت ودمعى
 نازف، عبرت طرقا أراها بعينى من سيبقى بعدى فى هذا
 العالم، أشدت عمائر لم أثق بأننى سأتمها عند وضع
 أساساتها، وعندما اكتمل يتمى بفقد أمى، انهار حاجز كنت
 أعده حاميا، يحول بينى وبين إدراك العدم، وعندما طق الألم
 وسد وريد ساقى، قال لى الطبيب، إنك محظوظ، كان ممكنا
 للجلطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة، قال إن هذا بمثابة
 إنذار، طلب منى ما يستعصى على، ألا أنفعل، أصغيت ولم
 أعلق، وخلال اضطجاعى أربعين يوما أيقنت أننى قطعت
 شوطا، نال منى النصب، هدفى تعب، نأيت عن الأصحاب،
 وندرت أوقات الرفقة، وشحبت المحبة، وهذا كله من علامات
 عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى، وظننت كساد
 سوقى، وفساد متاعى، واعتراض ركبى، وانقضاء الأكثر وبقاء
 الأقل، صعب حالى، ووعر ظرفى وبقي الأمر فى شدة حتى هذا
 الفجر، حتى مطلع النهار فى تلك الأقاليم الأسيوية، وبتراثى
 الموجه هذا واجهت إشراقها، وحضورها الفتى، البهى، لعل
 وعسى!!

إنصاح

اعلم يا أعز صاحب - رقق الله خواطره - أنها واجهتني.
شغلت فراغا أمامي بضياؤها، شددت رجال بصري صوب
ملامحها، وعمق حضورها، محاولا التمكن من نضارتها،
وغرابة عينيها الرحبتين، الطاقتين، النورانيتين، حيث يتطهر
فيهما الضوء ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى، حتى
هذه اللحظة لم تكن تعرف عنى شيئا، كانت تجهلنى، لا من
حيث صفتى واسمى، لكن جوهرى أعنى، وإن خمنت إدراكها
لما يتطاير صوبها من شررى، من وهج وألق، كنا ما زلنا فى
غمرة احتفالنا بصاحبنا، جاء رفاق الرحلة. تضاموا، صرنا
جمعا، أنشدوا فأنشدوا، لوحوا فلوحنا، شاركت من بعيد وإن
كنت على مقربة، كان انشغالى يتزايد، كنت مشرعا حواسى

لإدراكها، لاستيعاب جلوسها، تراجعها برأسها المائل قليلا، ابتسامتها التي تطل فجأة ساعية صوب العالم بأسره، فما البال لو خصت شخصا بعينه، سلكت طرقا شتى صوب ابتسامتها تلك، تارة خلسة، ومرات مباشرة، علانية، كنت فى عجلة، فالوقت محدود، وعندى حشد لا بد من دفعه وإيصاله فى فترة وجيزة. أما الآن فهمى الأول إعلان ولاتى، وتبليغ فيضى..

اعلم يا أختى، أننى عند إطلالة أفرأحى تتحرك أشجأنى. تسألت إلام سيستمر هذا؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد، لم يتبق إلا أيام معدودات، بل أمعنت فتسألت، كيف سأستعيد هذه اللحظات فيما بعد؟ وهل سأقلب عليها حسرات؟ كيف سيعصف بى شوقى، وكيف ستيكون وجدى؟ هذا حالى أرى النهاية فى البداية، والأقول فى البزوغ، والغروب عند بدء الشروق، لا لحظات حميمة تأخذنى عنى، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى عن جوائى، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا، يدعوها إلى رقص فتلبى، تمضى أمامه، متأودة، لها رسوخ، يتدفق منها كيان بأتمه، لم تكن تسعى، إنما تفيض، لم تكن تخطو، إنما تهمس لليابسة بموطئ وجودها الحسى، تابعت خطوهما حتى ولوجهما الطيبة، ملامسة صاحبى لكفها، ابتسامته ساطعة، عنده بشارة دائمة وحماسة متأججة، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقائه، وحرارة خطابه، وجزل عباراته، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من خمس قرن، غير أنه فى حركة عنى، متدفق الانفعال بأديه، صريحه، ينفذ إلى

الأخرين عبر كلماته، على نقيضى، إنما يكون ذلك عندي بصمتي، بانفجاري المفاجئ، أتابع خطوهما، تلاقيهما، تباعدهما، تحاور جسديهما، يميل المعماري الهندسى فجأة، هامسا.. «معجب أنت بها؟».

فى صوته النحيل ود، رغبة فى القربى، لم أراوغ، أوامت، قال باختصار دال، شأن من يبصرنى، من يطلعنى على خبايا لأقرر، لأحسم خيارى، قال إنها فى الرابعة والعشرين، متزوجة حديثا، تحب زوجها، إنها متخصصة فى ترميم المبانى القديمة، صمت لحظات ثم قال، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة، كل منهن بصحبة زميلة لها. أفضى ثم تطلع إلى، إلا أننى لم أعبأ، فما أتأهب له، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى، فكيف بمن يجهلنى، عندما عاد صاحبنى المحطفى به. مال على هامسا:

- «ادعها للرقص..».

تطلعت إليه مضطربا، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لا تعرف منها حرفا، إننى لا أتقن الرقص فكيف أجرؤ. فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى، عاود صاحبنى الهمس..

- «هذا لا يليق..».

أعى أننى من جهة، وهى من أخرى، أننى قادم من زمن غير زمنها. ميراثى مختلف، بوجهها تبدو فى بداية، أما مفتحتى

فقد أغلق منذ حول ناءٍ، هي في إقبال، وأنا في إدبار، هي في قلب الراحلة، وأنا متعثر الخطي، يمكن أن أتخلف في أية لحظة، فأية كهولة مبكرة نالت مني، وأية شيخوخة أدركتني قبل الأوان، في هذه اللحظة انتبهت إلى تطلعها صويبي، بدأ حضورها مختلفا، مغايرا لما كانت عليه منذ دقائق، إنها مترقبة، متوقعة، كأنها مبشرة من عل، انفراجة شفقتها لا تلحظ، أما أفقها فرحب مضيء ..

- «أنت مخطئ إنها تنتظر..»

بما أنني اعتبرت وجودها محطى، وشرف غاييتي، فلماذا لا أسلك الدروب كلها، ما أعرفها، وما أجهلها، فلاتغاض، أتخفف من أثقالى، فإلأعد ترتيب مكنونى. فلأبسط ما تيسر من أمرى، قمت واقفا..

- «أندعونى؟»

جاويتها بنظر رق فشف فدل فأفضى..

- «إذا سمحت..»

بسطت يدي، تقدمتني، عندما دنوت، لم ألس صوف قميصها إنما بدأت أتشم مشارف وجودها الحسى، منه تسربت تجاهى إشارات وإيماءات، أثق بأنها لا تعى من أمرها شيئا، كما أن تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية، بدأ القرب، فلما ضاقت المسافة بينى وبينها.. وصلنى

من أنفاسها بريد مفوض. غير ذى طوى. يبنى القاصى حتى
بعبيرها، فما بال الدانى المتلف؟، منها بدأ سنها لم أعرفه عند
جلوسها فى مواجهتى، وحضور مغاير لما طالعتة منها عند
سعيها اليوم فى بخارى، اعلم يا صاحبى، أننى إذ أخط لك
هذا الآن، إذ أستعيد الشوارع العتيقة، فلا أراها إلا مقترنة
بها، هى فى البؤرة، ولب المركز، أذكر امتداد الصيارفة القديم
المبائى على جانبيه، وتوالى القباب، فلا يتكشف لى منه إلا
بمقدار تتابع خطاها، وإذا توقفت تراجع برأسها، وهففت
شعرها الجميل، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها، تجول صوب
ما كانت تنظر إليه، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعتها
خواطرى، وشرعت فى ملاحظة البنيان، إذ أستعيد مدرسة مير
عرب التى تقف زما طويلا لرؤيتها، والوقوف على معمارها،
أراها بداية عند مدخلها، تلج إليها بقامتها السامقة، تتمهل عند
الجران المنمنمة فاتمهل، ومن مركزها أرحل هنا وهناك، أما
الزاوية التى اختارتها لتنظر منها إلى مئذنة كش الصاعدة إلى
ذروة الفراغ، صوب لب الأعلى. فنفس الزاوية التى أستعيد
منها مرأى المئذنة الآن، المئذنة وهى متواجهان، وما بين عينيها
والبنيان المتلف حوار وخطوط اتصال، أما الساحة التى يخيم
عليها هجير قديم، وفراغ خفى. فتوشك أن تردد أصداء
الأقدمين الذين عبروا، وتوقفوا هنيهات أو حقا، الذين قدموا
آمنين، أو الذين هرعوا، أو الذين جاعوا عنوة غازين، ومنهم
سيد المجتاحين، جنكيز الذى لا أدرى من أية زاوية تطلع إلى

مئذنة كثن راكبا فرسه، قبل أن يستبيح المدينة ويطلق فيها جنده فيخربوها، فكان هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا لتقف عليه هي، ولتقع عليه عيناها، أما مدرسة مير عرب، فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرا، لم يكتمل إلا بوقوفها فى باحتها، وتأملها المتمهل للنقوش، والآيات، والعبارات، وانتظام الأبيات، فكان الذين صاغوا التصميمات فى الحقب البعيدة، الذين أشرفوا على تشييد تلك العمائر، استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبئوا فى حينه بمجىء تلك البنية ذات يوم، فراعوا ذلك، وانتبهوا إلى العنصر الناقص، حتى إذا وفدت إلى عالمنا، ونمت، وشبت، ورحلت، اكتمل البنيان، وتضافرت العناصر، لو أنك بصحبتى وأشهدت تجولها فى القصر الصيفى، انثناءها عند المنحنيات، وسماحة ملامحها عند نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا لسعيها هذا. ولما خطر لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراءتك هذا، أنى مبالغ، أبدأ يا أعز صاحب أبدأ، اعلم يا أخى أننى فى حلبة الرقص طاف بى ما جريته. ذلك الترقب الذى يلزمنى عند جوازى عبر مداخل العمائر القديمة، والمرات المؤدية، حيث الصحن الفسيح بعد الممر المدهلز فكأنه الفرج بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، كنت أدع نفسى فى مساجد بخارى لأرصد توالى المشاعر على خاصة عند دخولى، كنت أشرع حواسى لالتقاط روائع المكان، فلكل معمار رائحته الملازمة، التى تمنحه خاصيته، وخلال هذا كانت هى متداخلة

بشتى العناصر، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى عنها،
 ونفاذ العتاقة إلى صميمى لم يغيبها عنى. كذا مقارنتى لحظات
 الدخول، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه، أو إلى مدرسة
 السلطان حسن، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام.
 المدثرة بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة، هذه الخانقاه
 التى أعشق، ملاذى من هجير عصرى وزمنى، عند اقترابى
 الأول منها لا أدرى، ولا أجد تفسيراً لإلحاح حضور هذه
 الخانقاه بالذات على، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى
 إحدى القبتين اللتين تتسلقان الفراغ العلوى العظيم. ربما
 ليقتينى الخفى، أننى سأظل إلى ذاتى هناك وأستعيد هذه
 اللحظات عندما تصبح زمنا مندثرا، لا أقدر على استعادته،
 وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم، ويشتد كلى.

اعلم يا أختى، أننى بعد إيابى، وبدء وجدى، حاولت جاهدا
 استعادة ملامحها فعجزت، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى
 لم تسعفنى، بوثوق أقول لك إنه ما من صورة أو لحظة
 مستعادة يمكن أن تدل عليها، أو تظهر بعضها من جواهرها،
 فى كل لحظة تبدى مظهرا، وعند كل التفاتة تظهر جانبا،
 ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف،
 فبأيهم أستدعيها عندى؟ وبأى رسم أقرىها منى؟ وما جهدى
 كله بعد نائى، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير، المتوالى،
 المفاجئ بما لم يدر به توقع، المحاولة وعرة يا أختى، أيمكن
 تلوين عبير الزهرة؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير؟

أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولت؟ تتوالى ملامحها ولا تظهر، فى كل لحظة تولد من جديد، بعض من مكنون نظرتها مصون فى صندوق غرارة قلبى، لكننى عاجز عن تمثله بعينى عقلى أوقن أننى لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى، فما كان منها كان، وما سيجىء، النظرة الحيرى أطلت وتلممت، والطفلة الوجلى قفلت وانتهت، والابتسامة الرائقة كانت ولن تكون حتى وإن دار الوقت دورته، وتذللت العقبات، وأذنت الظروف، هذا من عوامل مرارتى، غير أن لهذا الهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أثقل عليك؟ جنبك الله يا أخى كدوراتى. أما الآن فأينى منثن إلى ما كنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابى، على ميلها ونصحها، أن أدع جثمانى على سجيته، ألا أكون عصبيا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أننى كنت أبدو رائعا فى العصر، عندما واجهت البنية الأوزيكية تمهلت. كنت دانيا منها. محيطا خصرها بيدى، ولأنها النواة وأنا الجزىء، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص فى ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدى أبو الحجاج رضى الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها إننى لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأننى رغبت فى القرب منها. قلت إننى لم تتح لى فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليقى، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بى. لم أعبأ، تعرف يا أخى

أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب الريح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما يدل على ما بدأ عندى، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل بوغتت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتني بهدوء راسخ:

- «وكيف أصدقك؟»-

أوشك كل جواب على مغادرتي، خفت نفاذ زادى من الأحرف، صرت نبضا. وتبسبت خفقا، بذلت الأقصى حتى نطقت، قلت إن دليلى هو حالى، وليس لى إلا السعى، ولها الرفض أو القبول فلتمنن أو لتغدق بغير حساب!

قلت إن الزمن غير مساعد، والوقت ضاغط، والبراح ضيق فجل اعتمادى واتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها على التلقى، ذاك حسبى! نظراتى اشتبكت بنظراتها، أنا ساع وهى مترقبة، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك، كنت فى لب فلكى، وعين توقيتى، ومن حيث لا أدرى أبحر مبتعدا عن مركزى القديم، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات سحيقة البعد، التى لم تكتشف بعد. ألا تهيم النيازك والشهب حتى إذا دنت من مجال للجاذبية يحس ولا يرى، يبدو أثره ولا يمكن الإمساك به، تهوى إليه؟ فمنها ما يدور إلى أبد أبيض، ومنها ما يحترق قبل ملامسة سطح الفلك، ومنها ما يستحيل بعضه ضوءا، ويسقط ما تبقى منه، وقد كنت أنا هذا كله، فأنا حائم، ماض، داور، مأسور، محترق بذاتى، منتقل من كينونة

إلى كينونة، لا راد لى ولا كايح، حتى إذا أفضيت، لمحت فى أفق عينيها بادرة مجاوية ربما كان طيفا أدق من أن يرى، ربما ميلاد رائحة ندى، لم يغب عنى، مع أنه انتهى لحظة بدنه، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصت زلزلة! خبطت اليايسة بقدمى، فتفجر منى عهد قديم، وبدأ تدفق! درت حولى، ملت على، أقلعت تجامى، تدفق قلبى المرهق يعدو وأثرى محاولا اللحاق بى، أما الموسيقى المتفجرة فولت، صارت ورائى، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة، ولاحت الحضرة، أما هى فراسخة، ثابتة فى جوهرها الدرى، تقف مائلة قليلا إلى الورا، حضورها فى عل، دائما يا أذى مظلة حتى وإن أقعت، جاء صاحبى، قبلنى، قال إننى كنت رائعا، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى، قعدت، تتلاحق أنفاسى، ثبت منظرى فكأنى لم أتأجج، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ما تبقى من قلبى، تلك ابتسامتها!.

فيما بعد تساءل صاحبى، لماذا كنت أبدا حزينا؟ لم أحبه فلم أكن أدرى، بل إننى لم أدر كيف انقضت اللحظات التالية، حتى أنصرف القوم، وخبث أضواء المطعم، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة، صاحبى، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الآسيوية وأنا. ومن قبل ومن بعد هى، مشيت أمامنا، لها صدى وترجيع، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة:

- «ستنامون؟».

كنت مكدودا، كنت أتشظى بحزن غامض، غتيت، كنت أرغب
فى الخروج إلى بخارى، بخارى الزهن القديم، غير أن مفازتى
موحشة، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى، يائسا من الظرف
والوقت، أجاب صاحبى..

«لماذا لا نتم السهر؟»

كأنه يؤكد اقتراحها، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة،
واستنكارا خفيا لشروعنا فى النوم، حمت ببصرى حولها،
مطرقة، طالعت منها جانبا لم أقف عليه، بدت ساهمة، راغبة فى
تجنب أمر ما. أو الابتعاد عن ضجر يخصها. إذن، فى الأمر
غصة، فى سماء الكون غيمة، فى صفاء النبع كدر، أبدى
الشاب متقن اللغة اللاوسية حماسا، ولما طال صمتى توجهت
إلى مباشرة بالخطاب.

«أطلب إليك أن تجيبنى..».

ولم يكن بوسعى إلا أن أمتثل وأبى!.

قريبى

أدام الله يا أخى جميل لطفك، وأتم الله خطو سعديك كما
تشاء وتبغى، أقصى عنك الوحشة، وأدام لك قريى من تهوى،
اعلم يا أخى أن فى الجماعة رحمة، وفى التنام الشمل أنس،
وفى الاتصال دواء ويقاء، فى الانقطاع عدم، لا أذاقك خالقنا
مر الوحدة وقسوة الانفراد، تبعثها والليل موغل هنا، مازال فى
بدايته بمدينتى، هنا زمنى المؤقت، وهناك أيضا، أما داخلى
فتوقيت خاص، لا يدري كنهه أحد، سعدنا إلى الطابق الثامن،
من النافذة العريضة التى تتصدر الردهة أقلعت صوب المدينة،
المعالم مبهمه، والحدود منطمسة، المدن لا تفصح عن مكنونها
ليلا، غير أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لى مرفأ

أبحر منه، حتى كدت أصغى إلى حداة القوافل الساعية إلى الصين عبر طريق الحرير، أوشكت على التقاط ركض خيول الغزاة، سماع انهيار الانقاض، وبقايا المعمار تتلملم من جديد، فكأن دمارا لم يقع، وغزوا لم يحدث، رحت أستعيد هدوء المقهى القديم، والأغصان المدلاة التي لا يمكن رؤية الواجهات السامقة إلا من خلالها، قعاد نفر من القوم فوق المصاطب الخشبية وأمامهم أطباق الزلابية، وددت لو شاركتهم، لو قضيت فى الجلسة مدة، لكن لم يدم تطلعى ولس صاحبي كتفى، قال إن الدقائق العشر انقضت، كانت قد طلبت منا الانتظار هذا القدر حتى تُنتهى صاحبته التي تشاركها غرفتها، مضينا عبر الممر المؤدى. طرقت الباب. بدت، تسطع فى المدخل الضيق، ترتدى قميصا قطنيا شديد الالتصاق بجسدها، بنهديها الناشرين القاسيين. لم تكن تحيطهما بمشد غير أننى لمحت دائرتى حلمتها ضاجتتين من خلال النسيج الرهيف، مشرعين، منهما تنبعث إيماءات لا تحصى، تخلت عن القميص الصوفى الفضفاض، كان يحجب ما يبدو منها الآن، ما أطلعه من استدارة ملساء لكتفها، أما خصرها فبلغ من دقته أنه أوشك أن يكون رمزا، لماذا تخفى جمال تضاريسها؟ أنتعمد وهى مكلفة بمصاحبة غريباء وما من سابق علاقة بهم أن تموه دفائن كنوزها؟ إنن.. ماذا يستر هذا البنطلون القطنى، أخضر اللون، رجولى التصميم؟ لا إجابة عندى، فلم أكن قادرا على إدراكها جملة، على انتظار الألوان المواتى، وهذا قد يأتى أو لا

يأتى! على انتظار الزمن المناسب لجريان الماء صوب جذور النبات، الماء يا أخى يهب النماء والحياة للزرع، ولكن هذا الماء عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقتله، يذويه، كل شىء بقدر فلنتذكر! أدركتني راحة عند ولوجي الغرفة، مساحة ضيقة، فى المواجهة باب يؤدي إلى الشرفة بجوار المدخل سرير ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد متمددا، فوقه قعدت ناتاشا زميلتها تلك الليلة، دقيقة التكوين، هادئة، ابتسامتها كقرنفل، تومئ ولا تتكلم، قد تلفظ كلمة أو كلمتين، لكنها طرف أصيل فى الصحبة، بجوارها قعد الشاب النحيل، من يتقن لغة لاوس، قال إنه تطلع يوما إلى الخريطة، لفت نظره موقع تلك الديار فى آسيا. بلد ناء عنه، بعيد، شغله، كيف تبدو أرضه وجباله وزنهارة وقبل هذا ناسه؟ حتى إذا التحق بالجامعة، بمعهد اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقي إمكانية دراسة لغة لاوس وثقافتها، أمضى أعواما أربعة، بعدها صار يصحب الضيوف القادمين من البلد البعيد، ومما سره وأرضاه سماعه ثناءهم عليه لإتقانه لغتهم، هذا المعمارى العجوز قال له صباح اليوم، أنت تتقن لغتنا أفضل منا! مازال ينتظر الفرصة لشد الرجال إلى لاوس.

فى الحجرة مقعدان، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى الشرفة وهذا ما ركنت إليه، كنت قادرا من خلال الزجاج أن أرى الليل البخارى العتيد. أما صاحبي فجلس فوق المقعد المجاور للسرير الثانى، الممتد بحذاء الجدار، فوقه تريعت، فى

الركن منضدة صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية، فوق الجدار صورة لأحد أبواب مدرسة مير عرب، طلاء الجدران وسط بين الأصفر والبني، يمكن القول إنه فى لون ثمر النارج. إننى أطوف بك. وأصف لك، ويمكننى المضى، فأذكرك أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمنتى وإياها. كنا خمسة، لكنه أول مجلس يجمعنا، صحيح هذا جمع، لكن إذا نما الأمر واكتمل السعى سنصير اثنين، ثم واحدا، لا يدري أهدنا ذاته من كينونة صاحبه، كنا خمسة مظلمين بالليل البخارى ثقيل الحضور، كثيفه، قبل أيام معدودات كان كل منا فى ناحية، وسعينا شتى، رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظري، لو سددت البصر لرسوت، ولو بدأت الحديث عنها والوصف، صعب على ما عداها هى المركز وسواها توابع، غير أن ملامحى لم تعكس ما يدور داخلى تعرف يا أخى أنه لقسوة ما مر بى، صار عندى مسافة بين الظاهر والباطن، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فمصيبرى حتما إليها.

اعلم يا أخى الأعز، أنها عندما تريعت، لما صارت فى هذه الوضعية ألت إليها الصدارة، دار حولها المكان والوقت، صعب على يا أخى أن أقصل لك الحديث، لكننى سأحاول تجسيد لب ما جرى وكان، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمة، وليالى سهرنا فى المقاهى،

ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار، لم تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ما قبل بعد الانقضاء نذكره فى جملته

وليس فى تفصيلة. نراه بعد انقضاء الوقت بمعناه وليس بنصه، وبعد توالى المدة فى أثر المعنى يتضاعل المشهد، تذوى التفاصيل، لا يتبقى إلا الرحيق، الشذا، سنا هين، واهن، من لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شهق خلالها شهقة لفرط انفعالة، يوشك أن يتلاشى هلكا، وإنى المذكرك ببعض مما ألمحت به، فالآتى لما يغيب عنى والتغير يحوم حولى فى ذروة الثبات، اللحظة فى أنيتها عدم محض، لذا عند مرورى بها أطلعها من بعد قصى، فإما استعادة لما انقضى وإما استحضار لما لم يأت بعد، هكذا أرقب الانفصال فى وهج الإدماج، وأرصد العدم فى ذروة الوجود، وهذا ما يقضىنى، الثبات المستحيل، والتغير القاهر، هكذا اطلت النظر إليها، ليس بعينى فقط، إنما بقلبى، بخواطرى، بشواردى، بوارداتى، أجتهد فى النفاذ إلى ملامحها، حتى أستعيدها عند نأبى عنها، الرحيل حتمى، لم أكن أحاول استيعاب ملامحها الحية، الجميلة، المتدفقة بالطلاوة، ولكن حضورها أعنى، هى فى اللحظة ماثلة أمامى، ولكن اللحظة إلى انقضاء. بعد انصراف إلى غرفتى، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟ سأراها فى اليوم التالى، غدا، قال قائل يوما..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد
ولكن شاء القائل أو لم يشأ، أنا، أنت، هذا أو ذاك، فالغد
أت لا ريب، ومنقضى، هكذا بعد الغد حتى بعد البعد، إنن..
كيف سأستعيدها بعد إيابى إلى موطنى؟ بعد أن تباعد القارات

ما بينى وبينها . كيف سأذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها فى ذهنى، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى، هذا صائر لا محالة، أليس مصير كل تلاق إلى فراق؟ والفراق بداية العدم، وقد بهت عندى ما ظننته لن يبيد أبداً، أذكر أيام طفولتى وصباى يا أخى فأنتنى خشية أن أتصدع، أيام لمتنا تلك استثناء فقد كنت غيا لا أعى ديبب الأيام، أو سريران الوقت، لم أرقب الآتى، ولم أنتبه، حتى إذا شببنا وتذرينا، توزعنا على الجهات الشتى، فصار كل إلى سبيله، وغاب عن العالم أب ظننته مخلداً . وأم وددت يوماً لو مت قبلها، أما شقيقى فغائب هناك وراء المحيط له حياته التى لا أعرف عنها شيئاً . أبناؤه الذين لم أرهم إلا فى الصور، فيا أخى إصغ إلى محب لك، لا تدع لحظة تولى دون النظر إلى ولديك . وأظل الجلوس إليهما، لا تدع الدنيا تأخذك عنهما، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك، سيصير لكل منهما حياته، وبدء كل منها يعنى انزواء بعض منك فانتبه، لا أرم تكديرك يا أخى، فأنت تعلم مقدار محبتى لابنك، وقضائى الوقت معهما مما يهدهدنى، ودخولى دارك له ألفة فكأنها دارى . وعلى أية حال لا يكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع، الثبات والتغير يا أخى لب القضية ولغزها، فهل سيرى سعينا؟، اعلم يا أخى أن تعلقى بفن المعمار وإتقانى له، وطوافى بمشارك الأرض ومغاريها للوقوف على شواهده وروائعه، إنما بدافع مما يلح على فإذا كان الدهر لاراد له ولا

مانع، إذا كان يجرف كل شيء، فلنحاول إبطاء تأثيره بالعمار،
بالحجر، لذا قال القائل قديما، لو أن الفتى حجر، ولكننى أعى
أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى، فماذا أنا فاعل؟.

فوجئت بها تقول..

- «لماذا تبقى بعيدا؟»

فرحت كطفل لأنها خصتني، أولتني اهتماما، لمحت
شرودى، تطلعت إليها شاخصا، ممتثلا، وإذا بها تفارق
قعدها، تتبثق فى وسط الغرفة، تتقدم منى، أقوم واقفا، تمسك
حافتي مقعدى تدفعه، تعادل، تفرط طولها البديع و تشير كملكة
تصدر أمرا..

- «أنت هنا!».

تلتفت إلى صاحبى، لم ينتظر دعوتها، تقدم بمقعده،
مبتسما موقنا، أنها راغبة فى اللقاء، فى التقارب، فى تدانى
المصائر، طوقت سوقها بنظرى، وددت لو ثبتت هذه اللحظة فى
وعىي. بينما ألح على تساؤل، أين كانت هى فى مثل هذه
اللحظة، العام الماضى وأين كنت أنا؟، بل أين كنت لحظة
مولدها علم ألف وتسعمائة وثلاثة وستين؟. كانت نفرا فى
القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود. ويوما مالا أدرى كنهه
الآن. إذ لا تدري نفس بأى أرض تموت، عندما أقلع من الوجود
إلى العدم. أين ستكون هى؟ بأى أرض، بأى محلة؟ أستكون
ساعية؟ أسيطوف أثرى بخلدها؟، كنت فى مواجهتها دوارا فى
فلكها، وفى الوقت عينه بى حس من شد حفى المصدر، لا يبين

لا يكاد ينتزعني منها، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما سأكونه، مفقودا حاضرا، مفقودا بين لحظتين، حاضرا فيهما معا! اعلم يا أخى أن إخواننا لنا من زمن بعيد قالوا فى رسائل لهم، إن الزمن ينقسم إلى سنوات، سنة مضت، وسنة لم تأت بعد، والسنة تنقسم إلى شهور، شهر معني وشهر لم يأت بعد، وأن الشهر ينقسم إلى أيام، يوم مضى، ويوم لم يأت بعد، وأن الأيام تنقسم إلى ساعات، ساعة مضت وساعة لم تأت بعد والدقائق منها ما مضى وما لم يأت بعد، والدقيقة تنقسم إلى ثوان، ثانية انقضت، وثانية لم تأت بعد، إذن أين الزمان؟ وهكذا مضى منى مقدار، ومقدار لم يأت بعد، فأين موقعها هى منى؟ تعود إلى مرقبها، إلى موقعها، إلى الحيز المكانى الذى يشغله وجودها الحسى، بدأ فيضها، لا تستقر على وضع واحد أكثر من دقائق معدودات. تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها تخاطب كلاما، تخصصه، تتزاحم الجمل والكلمات عندها، يصبح النطق غير مساعد، فتتحدث عيناها، وملامحها كافة، تبدو راغية فى بوح فى اقتراب، فى تلاق، أمله أن يدرك كل منا ما لم تقله، الظلال التى يعسر لفظها، قالت إنها المرة الأولى التى تنزل بخارى ومن قبلها طشقند، المرة الأولى التى ستمضى فيها إلى سمرقند، البلاد شاسعة، ولكم ترغب فى رؤيتها، ها هى فى آسيا الوسطى، ومشروعها القادم إما سيبيريا أو جبال الأورال، ستفضل القطار. الطائرة تلفى الإحساس بالنقلة، تود الإقامة، فمعرفة المعمار الحقنة لن تكتمل

إلا بإدراك البشر. عملها كمرافقة استثنائي، اختاروها لا تقانها
الإنجليزية، بدأت تتعلمها منذ الرابعة، وهى فى الحضانة أنها
تدرس الطرز القديمة، التفتت إلى، إلى صاحبي، تعرف الكثير
عن العمارة الفرعونية..

«لماذا تسكت؟..».

توقفت فجأة. حادت صويى، باغتتنى بينما كانت تجتاحنى
على مهل، ويقدر انبعاث بهجتى لتوجيهها اللفظ إلى بقدر
وجل، نعم.. كنت صامتا برغم موارد داخلى، كنت أمنح منها
مددا يشد أزرى بعد بدء ابتعادي، سؤالها المفاجئ ذكرنى بى،
كنت مثلها فى تدفقها هذا، أيام لم أكن أعبأ بساعة هجوع
معينة، لا أشكو خللاً لا أقاسى وحدة، أيام اجتماع الصحب،
واكتمال اللمة، انقضاء الليل ونحن سهارى، يتكشف الخيط
الأبيض من الأسود وحواراتنا لم تنفد والأمر فيه بقية، وقد
أبدى اقتراحا لم أعد له العدة، أن نمضى إلى شارع المعز.
نجوس فى ظلال المباني العتيقة. أقف بين الصحب، أشير إلى
الواجهات السامقة، أوضح الفرق بين مؤذنة قلاوون، ومؤذنة
برقوق، أبدو منفعلا، حتى قال صاحب لنا سورى يوما: أنت
تضفى حياة على الجدران الرمادية، حتى لتوشك الحجارة
على النطق!، لماذا تسكت؟ لم أجبها مباشرة فمطت شفيتها
تعجبا وحيرة، واستمرت، والدها أستاذ جامعى، متخصص فى
الاقتصاد، أما والدتها فطبيبة، باحثة فى علاج الأورام.

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل، وحمول جمّة، وحنز غتيت ملازمنى طوال السنين الأخيرة، أورث هذا عيني ظلّالا، وكسى نظراتى غمامات رمادية، كان فيضها يبنهني بقوة إلى أى حد أوغلت مبتعدا. عرفت فيها مثل تدفقها هذا، وددت لو أعرف كيف ترابى من خلال موروثها وتكوينها، كيف أبدو عندها؟ متمنيا أن تدرك بعضا مما يعتمل داخلى، وددت لو انفردت بها دقائق، لو فجرت بعضى بين يديها، لكننى لم أرها إلا فى جمع، هذا صاحبى يبدو ودودا، مبتسما، يتقدمنى بأكثر من عشرين عاما، عرفته متفائلا دائما والظرف العاتى غالب، فياضا، قادرا فى الحال العاتى. وإنى لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا، غير عابئ بما يتهدده من أخطار. متصديا لذلك المهندس المقاول المدعوم وقتئذ من كل سلطة، وأحد رموس الفساد، خطب محرضا، وخط الكتيبات كاشفا ما يجرى فى الخفاء، وذكر الأرقام، وأتى بالأدلة، حتى قلت يوما مادام فى قومي من هو مثله فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وعندما زج به فى السجن لم يهن صوته، ربما لأنه مازال فى جماعة وصحبة، ألم أقل لك يا أخى إن فى اللمة رحمة؟ أما قناعاته فلم تدركها الشبهة، لم يصبها عطن، ولم ينل منها وهن، كنت أرقب قدرته على المجارة والتفاعل، محاولا قدر طاقتى تتبع ما يجرى بينهما من حوار. لا أدرى مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت فى الثامنة عشرة، إذن.. ليس كما أخبرنى الهندى. عندما همس لى محذرا أنها

زوجة جديدة، بما يعنى اشتعال الجذوة، إذن.. كانت تصرح
بما يدفع عنها الشروع أو المحاولة، قالت إنها لم تر الآثار
الفرعونية إلا فى الصور..
- «هل رأيت الكرنك؟».

أومات مبتسما، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومى، لكم تود
دخول الأهرام. والوقوف بين يدي (أبو الهول)، وزيارة معبد
إدفو قالت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته، بدأ
تشبيده والحضارة تزدوى، والعقيدة مطاردة، أتمه القوم ليلا.
- «هل زرتة؟».

ينبهنى صاحبى..

- «فاليريا تسالك..».

أهز رأسى نفيا. تبدى تعجبا ودهشة، يقول متقن لغة لاوس
الهادىء الصموت:

- «فاليريا اسم له أصل عربى..»

نتطلع مستفسرين، تشهر أصبعها..

- «يعنى ليلى..»

أرضى إذ أجد وشيجة قريى بينها وبين ناسى، طال إقلاع
بصرى تجاهها، بدأ ضوء خفى مختلف يشع عبر وجنتيها،
أيقنت أن أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هى إلى
وقتى، وتفرع مغاليقى بفيضها، فكانى ما جئت إلى بلاد ما
وراء النهر، مادنوت من نهري سيحون وجيحون إلا بجنأ عنها،
لاكتشف عين الحياة التى خلقت منها، أبدا.. لم تكن هذه نطفة

فعلاقة، لم تكن يوماً بين صلب وترائب. إنما خلقت من ماء الحياة، منها تتدفق الحيوية، غير أنني لم أحتس منها بعد، مع مضى الليل كنت أتطلع إليها، مأخوذاً عن كل وجود سواها، فلو تمثل العبد الذى أوتى من اللدن علماً، وقتل أحد الموجودين لسبب يعلمه هو لما استفسرت، لو هدم الجدار القائم لما سألته، لو أشعل النار فى الأفق لما انتابنى فضول هى فقط فى مواجهتى، أتلمس طرقاً إلى رائحتها، أقلع منها إليها، فهل يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه، كنت أترقرق، وعناصر منى تتبدل إلى مالا أعهدده، حتى إذا بلغت حداً من التوارى والانشواء داخلي، وأيقنت أنه لا عالم بعد اليوم، شبت طفرة من طفراتى، واندلعت إحدى ومضاتى، فأرقت مقعدى فجأة، وحططت بجوارها، أهدتني نظرة جانبية راضية فأمنت، احتفظت بمسافة تمكنني من النظرة الشمولية، أما هى فغيرت على الفور من وضعها، ثنت ساقها تحت وركيها، فانقلبت فى حركة مباغته لتجثو على أربع، بدأ ظهرها رحب النغم، أما حضورها الحسى فازداد توقداً، وما زاد الأمر صعوبة انحسار القميص إلى أعلى، وتراجع ينطوئها قليلاً، مما كشف عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق رديها، ولجرد أننى تطلعت فكأننى لمست، دنوت وتنديت وقلقل هذا حسى ومعنوى، لاحظت أن صاحبي أدرك ما أدركت. فسد نظراً نهماً، لم يخفه، ضايقتني منه هذا، وددت لو أنه لم يفعل، تمنيت لو غطت ما بدا مع أن ولايتي منعدمة، إلا أنها لم تركع إلا لثوان، فردت

جسدها، فكأنها بعثت من داخله جسداً آخر، حركت ذراعيها،
 بدت على حافة الرقص، غير أنها ثنت ساقها تحت الأخرى،
 اتخذت وضعاً بوذياً، وتحدث الحاضرين أن يأتوا بمثله. بادر
 صاحبي، بدأ المحاولة لكنه لم يتمها فارتحت! تقدم متقن
 اللاوسية، إلى حد ما نجح إلا أنه لم يحتفظ به، بينما كانت هي
 كما هي، أنا لم أشرع، أما ناتاشا الصامتة فصفتت، عندئذ
 أنهت وضعها، بدأت تغنى، كان صوتها فتياً، يتضمن رقّة،
 وشجنا خفياً، تابعتها متمايلين مع النغم، وهنا بدا منها تجدد
 آخر، لم يدركها الوهن أبداً، أما عيناها فازدادتا تألقاً، أقول لك
 يا أختي إن العتمة لو أرخت سدولها لضوت هي، مع قربي منها
 دام تطلعي ومحاولة تتبعها، فاصبر على يا أختي لو فصلت
 وأطلت..

فتارة أراها صاعدة، متجهة إلى منبع ريح الصبا، وتارة
 إلى حر الجنوب..

مرتفعة إلى أوج. هاوية كشهاب دنا أجله، وحن احتراقه،
 حتى إذا أوشكت، شهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها..
 تدنو من البروج كلها، فتارة للبروج النارية، ومرة للترابية،
 وأخرى للهوائية، ثم تنعطف إلى المائية، إلى المتقلبة، إلى
 الثابتة..

المح عندها دوران الفصول، هي ربيع، هي صيف، هي مطر،
 هي صحو، أراها متفرقة، أراها متجمعة، أحياناً ناظرة،
 وأخرى مولية، منصرفة، مقبلة، مجتمعة، واقفة، واقفة،
 منبع ومصب!

قريبة حتى أوشك على تنسم ما تجود به مسامها .
بعيدة، قصية، مستحيل إدراكها، فكأنها مصدر كل
اغتراب، هي بجوارى، طفلة تلهو، وأنثى ضاجة، فوارة، مثيرة
للكوامن. تطرح ألغازا وألعبا، ثم توغل فى نقاش عويص عن
وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية..

رأيت فيها مراحل فى لحظة، وأعمارا شتى فى كينونة، أما
جسدها فمعمار متكامل، مبسوق، علو كقبة بانتيون روما،
ورشاقة تستعصى على اللمس كمنحنى مدخل مدرسة
السلطان حسن، مهيب كإيوان كسرى.
- «لماذا تنظر فى الساعة؟»-

اعلم يا أذى أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها،
انها الخصال القديمة، فى تمام القرب أستدعى اكتمال البعد،
وفى ذروة النشوة أفتح عيني لأرصد ردود الفعل على وجه من
اقترب بها، وألج جسدى فى جسدها، فى هذه اللحظات أدركت
اقتراب الفجر، ولهذا ودون أن أعى تطلعت إلى الساعة،
والهواجس عندى تبدأ مع اقتراب الفجر، حيث اضطراب
أنفاسى، وإصغائى إلى أصوات تصدعى واقتربان ذلك بتوقع
الموت، يضطرب قلبى، وتتداخل أحوالى، ولا أدرى لماذا أوقن
أن رحيلى سيكون فجرا، الآن ميلادى كان فجرا، أم لأن إقلاع
والدى تم فجرا أيضا؟ فى الفجر أتوجس خيفة، وأصغى إلى
دبيب اليوم القادم. متسائلا، هل أنا بالغه؟
تطلعت إلى صاحبى، فهم عنى، أوما، صاحت محتجة..

«ستنصرفان؟».

لزمت صمتي، أجاب صاحبي..

«لابد أن تنام ناتاشا، لابد أن ننام لو ساعة..»

ثم قال..

«أمامنا غدا سفر وجولة..».

تلفتت إلى ناتاشا:

«تريدين النوم؟».

تجيب البنية بابتسامة، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام

لكنها صاحت..

«اسكت أنت..».

رق صوتها فجأة، لحت فيه رجاء.. قالت..

«لماذا لا نخرج ونقابل النهار معا.. ثم ننام!..».

بحدة التفت إليها، رأيتها بين شجرتي التوليب، أكانت تقابل

النهار منفردة وقتئذ؟، غير أن ماهزني أمر آخر، هذا مقترحي

في الزمن القديم.

منذ أمد كنت في عشق عظيم، هاتفت صاحبتى بعد

منتصف الليل. مقترحا أن نلتقى بعد الفجر. أن نرى أول ضوء

معا. أبدت ترددا وخوفا، وإن أعجبها عرضي، وفي مرة ثانية

التقينا ذات صباح، وخطر لى أن نسافر إلى الإسكندرية، نرى

البحر ونرجع في اليوم نفسه، قطعنا المسافة متقاربين

مبتهجين، وعندما طالعنا الموج، والزرقة، طربنا، وتقاهمنا، وعند

المغيب عدنا إلى مدينتنا، هذا مقترحي، وإذا بالدائرة تكمل

ويتلى على مسمعى ما قلته يوماً، وممن؟ من هذه الجرة
الأنثوية، وما أنا إلا تابع لأحد أجرامها، فإما درت حولها، وإما
انجذبت تجاهها، وإما أفلت من إسارها فأهوى إلى هدم، تبدى
هى الرغبة، بل بنفس الإيقاع الذى صدر عنى يوماً، فأتردد، بل
واعتذرت وأسفت لى، رثيت على، أين اتصال الليالى ببعضها؟
أين سهرنا صحبة فى المقهى القديم؟ حتى إذا أذن الفجر
ولجنا المسجد القديم، القريب، نتنسم فراغاته، وصفاءه، نخرج
منه والنهار مكتمل، نشيطين، أما سعينا فشتى. ما من تعب، ما
من وهن، أين زمن الحرب عندما كنت مجنداً فى الصفوف
الأمامية، تتوالى أيام ثلاثة دون إغفاءة. ويكفى إغماضة العينين
لحظات معدودات فتجدد الجذوة، أين هذه الأيام أين؟ أهو
السن؟ لكننى لم أوغل بعد. أهى العلة المفاجئة. لكنها نتيجة
وليست سبباً، بعدها صارت أفعالى فى الحدود بعد أن كانت
فى المطلق، لكن صاحبى هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية،
أعى أن لحظاتي فى الليل البخارى هذا ستكون زادا عندما
أثقلب فى وحدتى، وأوغل فى غسريتى، كنت أعى يا أذى أن
حضورها بقربى سيتوالى على، زاد نفيس، عزيز، فلماذا لا
أبقى؟ لماذا لا أستجيب! خاصة أنها هى التى تطلب، هى من
يرغب، الوعى أننى مهما بقيت فمصيرى إلى انصراف؟
الرغبتى فى الانفراد؟.

- «لماذا تريد الانصراف؟».

- «لابد من النوم..».

تقول بضيق.

- «سيجئ زمن ننام فيه طويلا..»

- «إني مرهق..»

قالت:

- «كل شخص فينا مرهق..»

انتبهت إلى اتصال الحوار بيني وبينها، أنا وهي لا غير، كنت يا أخي حائرا، إلا أن وقوف صاحبي، وامتقن اللاوسية. وإنهاك ناتاشا البادى حسم الوضع، وعندما أويت إلى مضجعي أيقنت من اتمام اجتياحها كينونتى، وأن ما تراءى لى نائيا صار قريبا، وما أصغيت إليه دببيا صار ركضا، غير أنها يا أخي لا تزال قصية، فكيف أتم الرسالة؟.

إرتقاء الكتيب

.جياش أنا يا أخى، وما تاريخى إلا عطاء بدون انتظار.
وفيض بغير حساب. واما أنا فيه فلم أبغ إلا الإحاطة. أليس
ظلما لو أن جواى لم يلق ظلا، وهواى لم يحدث صدى؟ قوى
عزضى. وانجذابى، وإنى لسارد عليك حوارية دونها عارف
قديم، جاء إلى بلاد ما وراء النهر، وربما وقعت عيناه على
بعض مما رأته أو توقفت عنده، قال الجليل واسمه جلال
الدين..

قال: من بالباب؟

قلت: عبدك المحب.

قال: فأى شىء لك؟

قلت: أقرئك السلام أيها العظيم.

قال: فإلى متى تلاحقنى؟

قلت حتى تدعونى

إلى متى تجيش؟

قلت: حتى القيامة.

هذا لب قصدى، أن يصلها نبأ بما عندى، أعلم يل أخى أن من الأشياء ما لا يمكن إدراكها أو تصورها لخفائها أو دقتها، مثل الجزء الذى لا يتجزأ، والمعنى الأول، وسبب ورود هذا خاطر دون ذلك، وسير الميل إلى هذا الشخص دون غيره، وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى. وإدراكى أن ما أمر به مآله إلى انقضاء، ومع ذلك لا أنثنى، فالوعى عندى أثم، إن نهاية الشئ فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده، أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته، وكما قيل فى المعنى.

ميتا خلقت، ولم أكن من قبله

شيئاً يموت، فمت حيث حييت

أعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلا نهارى السمرقندى الأول، اعتدت تبدل المواقيت، واختلاف الأزمنة. استيقظت وعندي جذوة متقدمة، هى على مقربة، تشغل حيزا معلوما بقدر، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى، أما

وجهها رحب الملامح، فسيطالعنى بعد قليل، كنت مستوفزاً، متأهباً، تقدمت من باب الشرفة الزجاجي، ذرات الماء الدقيقة مغمية، مسحتها فانجلت الرؤية، فى البلاد التى أنزلها أول مرة اعتدت إغلاق الزجاج وإسدال الستائر الخفيفة لا غير، أما الثقيلة فأنحيتها، أوثر مقابلة كل عنصر فى الأرض التى أطؤها أول مرة. فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة، وقديم صلة، وأحلام مبهمة، وتوقعات غامضة، واحتمالات ربما تبدوا لك مستحيلة، أن ألقى بعض من سبقونى بقرون، خبرت هذا غير مرة، عندما شاركت فى جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل الإبقاء عليها، والقيروان بتونس الخضراء عندما مضيت لأعين مسجد عقبة للسرمدى، وعندما استندت بيدي إلى جسر خشبى فوق نهر العشار لأتأمل شناشيل مدينة البصرة، ومن قبل ومن بعد قاهرته المعزية التى فرقت لحظاتي عند نواصيها، ومداخل مبانيها، يخيل إلى أحيانا يا أخى أن ما مر بهذه المدن لم ينقض، لم يندثر، دائما أتوقع من يجيئنى ليأخذ بيدي ويصحبني إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة، وحلقات الدرس فى مدارسها القديمة، وساحاتها يعبرها المحاربون الخارجون لملاقاة الغزاة، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجد النفس للوصول إلى ملمح مما انقضى. لكننى لا ألقى إلا الآنية!

أشجار ضخمة تتخلها شجيرات التوليب، تتمنم الرؤيا، توظر الوجود، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب،

تحدد الفراغ، حدث ببصرى، ليست بمفردها. قبة أخرى تواجهها، فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها، فلا تدرى الأصل من الظل، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نممة النقوش تجاوب النقوش، والرقعة تؤاخي المهابة. أما تدفق الخلق فلا بد أن يؤدي إما إلى بوابة عتيقة. أو مدرسة، أو مسجد، أو ساحة انطلاق. أو ضريح يرقد فيه جليل، تلك مدينة سيد الفاتحين، من طمح إلى امتلاك العالم. تيمور. ولي تعليق أود لو أفضيت به إليك، ولكن في وقت آخر. وليس الآن. فأني متعجل رؤياها، ليست باعثة جذوتى تلك، والتي طال ترقيبي لهازمناً؟.. بسرعة أديت طقوسى الصباحية، من حلق لحية، وغسيل أسنان. وحمام دافئ. وترتيب حاجاتى التى سأصحبها فى حقيبتي الصغيرة، عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها. لمحت صاحبي، أمامه طبق فيه بيض مقلى، وكوب ملء بالشاي، ورغيف أوزبكي. بدا صامتاً، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة، وطيّف ابتسامته، وعندما بدت بنية رقيقة. دقيقة التكوين، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة، سخية، أقدمت تجاهه مستأنسة، متحمسة، أضمرت حسداً وإعجاباً لإبدائه الود تجاههن، وإظهاره جميل اللياقة وإقبالهن عليه، وبينما تتعاقب التعبيرات الآمنة على وجهه، أعتصم بصمتي، محتفظاً بسمتي، فما يبدو مغاير للباطن. أظهرن النفور مني، لم يومئتن حتى عند مرورهن بي. وهذا جعل خشيتي تتعاطم، ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندي. لم أكن أرى ماعداها، ولا أعبأ بغيرها،

وعندها جاءت، سرت، ولما أوشكت أن تتجاوزنا ناديتها، توقفت، والتفتت. وأومات، ثم لبت، وعندما استقرت بجوابي هدهدى قريبا، اقتربت من حافة عبيرها الخاص، الرائحة القادمة من توالى حضورها، من أنفاسها، من مسامعها، من زمنها، لم أتمكن منها بعد. غير أنى رحت أحوم أحاول الطواف والقبض على مالا يرى، هذه أنفاسها، وهذا أريج شعرها. أما الصبا فقادمة من أغوار روحها، أثار قريبا منى حيننا غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية، ولون أخضر زا، نضري يوحى بالبلل. تبدو مهمومة، ساهمة، فكأنها قاست أرقا، متطلعة إلى جهة لا ترى، أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها فتعنى انشغالها بأمر يستعصى على إدراكه، وكدت فى هذه اللحظة أوقن أن ما بدا منها فى ليل بخارى لن يتكرر، كانت تتجاوزنى بالنظر، وكنت أدركها وأدرك المدينة معا. إلى داخل الفندق الأوروبى التصميم ينفذ حضور المدينة. تبدو بخارى وكأنها أقلعت من الدهر، أما سمرقند فمتباهية، مختالة، لا تزال فى لبه؛ بخارى لا تتكشف للغريب مرة واحدة، شيئا فشيئا، أما سمرقند فتبدو بشمولها، بعمقها منذ اللحظات الأولى، يسألها صاحبى عن المعمارى الهندى وصحبه. قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين، وهم يجوسون الطرقات قرب الفندق، جاء النادل، وقف منتظرا، اقترحت عليها الزلابية، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة. أحرص على أمرين، أن أطمع مما يختص ' أهله، وأن أصغى إلى موسيقاه. قلت إن موسيقى

هذه النواحي حزينة، شجية، فيها أنين مؤلم عمره قرون. فيه صلصلة الأزمنة المندثرة، والقيام والانهدار، والقطع، والاتئاف، والإحساس بالمجد، قلت إن مالفث نظرى تلك الإيقاعات الأندلسية، والآهات المصرية، والأناث العراقية، والوشى الصينى، قال صاحبى إن تاريخ المنطقة وعر.

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة.

ثم مالت تجاهى

ما الزلاية؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس، فطائر محشوة باللحم المفروم..

ثم قلت..

نفس الاسم عندنا. لكننا نطلقه على فطائر حلوة..

حادثت بدهشة، قوست حاجبيها فبدا جمال كامن، وأصغيت عبر ملامحها إلى لحن بعيد. تائه منى، غائب عنى، لحن مبهم، يؤجج حنيننا ويضاعف تطلعات إلى الرحيل، ويستدعى لحظات بهجة، إما أنها ولت. أو لم أعشها، أو لم يعد لها موضع فى الذاكرة المثقلة.

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك. ولم يكن تدفقى إلا حجة للنظر، ووسيلة للقرب، تعلم يا أذى أنى أحيانا

أبدأ فلا أكف عن الحديث، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب. أتجاوز كمونى، فكأنى ألوذ بالصحبة، حتى إذا انفردت ارتددت فإما وجلت، وإما انفجرت. كانت تصغى ساهمة، متبعة، فكأننا تبادلنا المواقع، فى ليل بخارى فاضت هى. ولزمت الصمت، وفى الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصغت هى، جاء النادل أسىوى العينين والوجنتين، وضع الطبق أمامها، أقدمت حتى اغيب عن طقوس الخدمة، ملأت كوب الماء. وقربت طبقا غير ممتلى، وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها، مع المضع بدت شفتاها مضمومتين، رياتنين، هما حضور الياقوت، ودقة شقائق النعمان قمعت رغبتى فى الليل والقطف حتى لا يلوح على مايشى بأمر صبابتى وحدة توقى، لا أدرى يا أذى كيف مضى الحديث، لكننى انتبهت وصاحبى يقول:

هل سمعت؟

كيف لم أصغ؟ لكن عذرى أننى كنت مولياً وجهى شطر إحدى جهاتها، أحد رواقمها، أبديت الاستفسار. عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا فى قلب الغيبة عنها لشدة حضورى قربها.

اعلم يا أذى كشف لك الله ما خفى عنك، وما دق فهمه عليك، أنها عندما كانت فى الثامنة عشرة، أى منذ ست سنوات، تعرفت إلى من هو زوجها الآن، هل كان مقيما على

مقربة؟ ربما، هل كان على علاقة بوالديها؟ ربما. المؤكد أنه هام بها. فى كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور. وعند المدخل الرئيس تلقاه، يحيطه الثلج، ملتحفا بمعطفه. بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة، أسابيع طويلة لم ينقطع يوما، لم يغب صباحا، وعندما اقترب يوم الخميس والعشرين من مايو، اليوم الذى جاءت فيه إلى الوجود، وقبيل انتصاف الليل بدقائق خمس، فوجئوا بطرق هين، كان يقف بالباب، حاملا باقة زهور، قدم بطاقة خط عليها ما ينبئ بدخائله. ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة، ذهبية الإطار، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال، أحببت حبه لها. كانت صغيرة، لكنها بعد اقترانها به، رأت فيه شابا جدا. هكذا أقضت متأسية، متحسرة، لم تخف أمرها، صممت، كأنها ودت لو أنه أكثر نضجا، ولاح منها ما بدا معبرا عن تفار. لم أعلق يا أذى، خفت أن أبدو غير موفق، وإن احترمت حبه لها. ومشروعه فى التعبير، وحاولت أن أتخيله فلم أقدر، وددت لو استفسر عن حبه الآن، كيف يعبر عنه، كيف يراها عند استيقاظها؟ عند تحركها فى البيت؟ كيف تمضى أدق لحظاتها الخصوصية؟ لماذا تبدو حزينة؟ ألهذا الحزن علاقة، أم أنه لأمر مختلف؟ بعد أن فرغت سألتها عن يومها، قالت إنه موزع ما بين المعهد وما بين البيت. ما بين دراسة المعمار وما بين شئونهما، إنها تقوم بكل شىء، أحيانا تمضى للسباحة، للرياضة أو للمشى مسافات طويلة. سألتها عن أصحابها الأقربين، فقالت إنها لا تتق بأحد!

أخى الأعمى..

هذا حوار جرى بيننا، بينى وبينها لا غير، فى المسافة الواقعة بين باب المطعم، والمدخل الرئيسى للفندق. حوار له منزلة عندى ومودة. حتى وددت لو دونت ما أحاط به، تاريخ هذه البقعة من الأرض التى مشينا فوقها، من لاس موقع خطانا منذ أن جاء إليها بشر وسعى إنسى، وددت لو وصفت ما أحاطنا، وذكرت كل من تواجد على مقربة، وحال الطقس، وموقع اللحظات من دوران الفلك. أليس حوارنا الأول على انفراد؟.. أليس الحوار الذى أنس فيه ثقة بى، وخصوصية؟.. فما صرحت به لنا لم تقله للهندي وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم، وشرح ما يرويه، وتيسير السبل لهم، لكنها شاءت لعلاقتها بهم ألا تتجاوز الإطار، كما أنها موته، فلم تفضح شيئاً عن حياتها، أما النبيرة التى صرخت بها أنها لا تثق بأحد، فبقدر ما تضمنته من شكوى، بقدر ما اجتوت من أسى ويوح إلى أنا، كنت متاهبا لالتقاط أية إشارة. تلون صوت، أو ارتعاشة واهنة فى مخارج الحروف، أو تسهيم نظرة، غير أن سنينى علمتنى الحذر. إلا أباغ، فلكم أسىء فهمى، ولكن أهديت وصورت، وأفصحت وأحببت. وأنت عالم ببعض مامر بى.

عندما اجتزت المدخل، بدت برودة الجو محتملة، إلا أنني اجتففت بغطاء رأسى، الأشجار حول الفندق. وأينما وليت البصر تقع عينك على مباني العصور القديمة. الخزف الأزرق

غالب، فكأن مواد البناء والزخارف. والخط نستعليق والتلث وتلك الحروف المتداخلة المتصلة وثيقة القربى بأسباب خفية. تمتع من زرقة السماء وتنهل، وإذا كانت بخارى كالمخطوط العتيق الذى تطوى أوراقه معانى أكثر مما تظهر، تكظم وتدثر، فالحضور السمرقندى مبسوط للكافة، للقاصى، للدانى، كنا، أنا وهى نقف فى الباحة منتظرين رفاق الرحلة، هى على مقربة بجوارى، لبشرتها مذاق القشدة التى تغطى اللبن فى وعاء فخارى، تدس يديها فى جيبى معطفها، أما الصباح فوقته من هذه الأوقات التى تمد فى الأجل. وتقصى الهواجم المكدرة للأفئدة، وتعد بالوصول والبشر، كنا فى انتظار العربة التى ستقلنا إلى مدرسة بيبى غانم. زوجة تيمور، إلى مجموعة شاه زند، الأمير الحى، بين كتبى مجلد يسجلها من كافة زواياها. كان عندى انفعالى الخاص، لقرب رؤيتى ووقفتى على ما طالعته صورا وسطورا، تحين لحظة أقف فيها لأقرأ فاتحة الكتاب على شاه زند. قثم ابن العباس. ابن عم الرسول الكريم، تقول مخطوطات التاريخ إنه استشهد هنا فى العام السابع والخمسين لهجرة حبيبنا وشفيعنا، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد سقوطه شهيدا. حمل رأسه بين يديه، وأوى إلى بئر عميقة، وفى قاع البئر تبدأ طرق شتى إلى حدائق لا يحيط بها بصر، ولا يدركها رحيل وإن طال. وأنه مازال حيا يرزق فى إحداها!

كان قصدنا مدرسة أولوج بك. ومزارات شتى، كنا نتأهب للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا. يجيء العصر العتيق إليك،

يلحقك أينما كنت فى سمرقند، ولا يدعك تمضى إليه. يؤطرك، يتبعك، يتقدمك، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلايف التى لا تيين، أما حضورها الكثيف فأضفى معنى فريدا على هذا كله، كان ما أراه من معمار وتكوين فى الفانت، أما هى فإنها الآتى عينه، فى الضوء السمرقندى رأيت لونا جديدا لخصلات شعرها، فإن قلت إنه أسود صدقت، وإن وصفته بالنحاسى أصبت، وإن لمحت فيه شقرة فما كذبت، ينهل من الصفات، وألوان الطيف. وسر الشفق، قلت فتوددت..

شعرك جميل

واجهتنى. بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت فى نبرة أنثوية:

هل يعجبك هكذا؟

تسألنى أنا؟ هى توجه إلى يا أذى استفسارا عن رأيى؟ لا... مهلا، ليس بهذه العجلة. أوشك بهت أن يطوينى، لكننى أفلت منه بقولى:

إنه رائع.

بدا منى تحزن، فى العربية نأت عنى، حرصت على الجلوس فى الصفوف الخلفية حتى أنهل منها. حتى لا تغرب عنى،

عرفت من صاحبي أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع، حيث تلقى كلمات ترحيب ومودة، اخترقنا شارع مكسيم جوركي، على جانبه يتداخل القديم بالحديث، تتماس الأزمنة. وتتوالج أحيانا. بعض الأزياء الأوزبكية منحدرة من عصور تعرف يا أخى مدى حنيني إليها وتفكرى بها، توقفنا أمام مبنى شيد فى الأربعينيات، سارعت بمفارقة مقعدى حتى اقترب منها، جاورتها، التفتت إلى، كأنها تحدث نفسها قالت:

لا أحب هذه الاجتماعات..

حرت. هل يجوز لى الرد؟ هل أرجوها البقاء، أو أعرض صحبتى، وددت لو طلبت إليها. ألا تغيب عنى، لكن أجم لسانى تطلعت إلى، كررت.. أضيق بالخطب.

ثم قالت:

لن أذهب.

أطرقت مفكرا فى مردود اختفائى من الاجتماع، وصحة هذا من عدمه، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها، لا أدرى كيف اختفت، عند دخولى القاعة لحلت الهندى وصحبه، لم تكن معهم. أصغيت شاردا إلى التصفيق، إلى الترجمة الفورية، إلى ملامح الحضور، إلى الدقائق المتعاقبة، يهتصرنى سؤال، أين هى الآن؟ لماذا نفرت هكذا؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح؟ هل بدر منى شىء؟ لماذا أحمل نفسى الوزر؟ لكنه دأبى يا أخى.

عندما تركت العربية مبتعدة سرى عندى خواء. أين هي؟ هل تمضى عبر آثار المدينة منفردة؟ أم أنها بصحبة من أجهله، وما نفورها إلا حجة لانصرافها لیتنى تخليت عن الخطه، لیتنى تبعتها، لیتنى لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها. لیتنى مشيت فى أثرها، لا أقرب إلا بالقدر الذى تشاءه لو أنها راغبة فى الانفراد، لا أتکلم إلا إذا سألت: ولا أجاورها إلا إذا أشارت، أما أن تختفى هكذا، أن يمضى وقت لا أراها فيه. أن تنأى عن دائرة بصرى، المجال ضيق. اغتممت، عزيت نفسى أنها تتحرك فى سمرقند. ترى القباب ذاتها. وتقف أمام واجهات المدارس عينها. لكم رغبت أن أراها بصحبتها. أن أفسر لها كيفية التلقى عندى، أن أحدثها عن فريدة الخط العربى المحيط بالأفاريز، النقوش الحافة، والحروف المتداخلة، جمال حرف الألف الذى بلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة بيى غانم أقرأ لها الآيات القرآنية. وأفسر قدر اجتهادى ما غمض من معانيها.. فجأة تباغتنى هواجس مرة.

أحقا هي بمفردها الآن؟

إذا كانت فى صحبة، فمن؟

أهو أحد هؤلاء الأجانب؟ إنهم أقرب إليها، والطرق التى تبدأ من عندهم تجاهاها أقصر وأوجز، فالميراث دان. والمزاج متشابه. أما أنا فقادم من جهات قصية، وما هي إلا طرح مغاير لما عرفته، فلماذا أطرق دريا وعرا، ولماذا ألقى بنفسى فى هجير صعب؟.

لكن.. قبل هذا كله، لماذا أنحى بالعتب. باللوم، وكأن الموثيق قائمة. والعهود أخذت بيننا؟ وكأن الود متبادل. وهنا تذكرت واحدا ممن أجلهم، وأقتدى بهم، وأحفظ لهم المكانة، أحب في أول شبابه بنية أوحى إليه بما أوحى. هام بها حتى كاد يهلك. أفنى من ذاته ما أفنى، وأبدى من فيضه ما أبدى، غير أنها لم تعبأ، ومضت مقترنة بأخر، وانقطع بها العهد. أصغيت إلى محدثي، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا، ولكن في صوته أسيئة لاتخفى. لمت البنية، واتكأت على سيرتها بالكلام الشديد، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لها جلجلة.. قال:

وما ذنبها هي؟ أنا أحببتها، ولم تحبني.. ما ذنبها؟

استعدت هذا وكدت أضحك ساخرا في نفسى. لكنى لم أقدر فالأمر جد. لكننى تساءلت، لماذا أسىء الظن بها، ربما رغبت حقا في الانفراد، ألم تكن صباح اليوم ساهمة، كدت أستفسر من الهندي إلا أنني أحجمت، مضيئا عبر طرق تستقيم وتنحني، صعدا تلالا ممهدة، ورأيت سمرقند منبسطة، قبابا تحاور قباب، وماذن تشير إلى جواهر السماء، منها المكتمل، والمقطوش، أما المداخل الشاهقة فتحاكى ديوان كسرى، لو أنها بصحبتى لقلت لها ذلك، لاحظت قلة نشاطى وهبوطى، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومى، فما أسرع الومضة!.. وما أقل عمر الشهب!.. لذت من ضيقي

بسمرقند، أوغلت فى المنمنمات، فى نقوش الجدران، فى حركة البشر الذين لم تتبدل أزيائهم منذ قدم سحيق، فى السوق الكبيرة، ورأيت فى قطع الجبن فرادة. وفى الخبز الذى فضلته عما عداه خارج ديارى، وعندما وصلنا إلى المرتفع، حيث مرصد أولوج بك. انقلبت السماء رمادية، وهبت رياح باردة، وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى، بدأ النفق المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين، كأنه يفضى إلى فراغ داخل جوف الأرض، طفت بالقبة، والمعرض الحديث المقام بها، وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى، والشىخ الرئيس ابن سينا، والبيرونى، ما نسبة الخيال إلى الحقيقة؟ إلى أى أصول استند الرسام المجهول لى؟ رأيت رسوم عالم الفلك، والطبيب، والمنجم، ولم أر توقيعا حتى لمن شادوا هذه العمائر التى تجاوزت هشاشة البقاء، حتى مدرسة السلطان حسن، ظل اسم من صممها ونفذها مجهولا حتى سنوات قريبة، عندما وجدوا ذكره متواريا فى الأعالى القصوى، لماذا يتوارى المعماريون، لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة؟ يحمل الهرم اسم خوفو، تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور؟ لكن أنى لنا معرفة من انهار عليهم الردم فجأة، أو من تعلقوا على ارتفاعات شاهقة لتثبيت لئون، أو خط حرف؟ هيروغليفيا كان يا أخى أو عربيا، لكم وددت يا صاحبى أن أسمعها انطباعاتى، أن ألفظ قريبا ما يجول بخاطرى، أن أقف إلى جوارها لحظة تجول نظرى عبر الأرض الممتدة، المتموجة، متسانلا عن البقعة

المجهولة التى يرقد فيها الشيخ الرئيس؟ أين مثواه: كيف تاهت عنه الذاكرة التى احتفظت بهذه العمائر، ما بقى منها وما اندثر، أين عاش هنا؟ أين أبدى المجاهدة. أين حصل العلم؟ لو ألم بحالى وما صرت إليه فى دياره بعدما عرفته من جذوة العشق لنظم رسالة مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر. أو لخصص فصلا عن التلاقى والتفرق فى «الشفاء» والمنطق! أين سعى؟ أين ولى وجهه، فى أى موضع كانت داره التى كابد فيها السهر؟ أما البيرونى فكنت مع استغراقى أستدل على الجهة التى سلكها عندما قصد الهند. تمنيت لو أنها بصحبتى يا أختى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو أنها قريبي وأنا أصدق إلى ملامح الساعين حولى، ربما انحدر هذا من أحدهم، لا هو يدري، ولا غيره، أيتعقب الإنسان جذوره البعيدة؟ إذن أين كان جدى منذ ألف حول، وأين كان جدها فى ذات الحقبة؟ حاولت أن أوغل فى النقوش، أن ألوذ بالتصاميم بالخطوط المتداخلة، كنت أبتعث لحظات نائية، وأقابل كلا منها بظل مما أرى، أو مذنبة، أو مدخل مؤد ما أجوز، حاولت رؤية مالا يمكن رؤيته تخفيفا لما أحدثه عندى ابتعادها المفاجئ. وفى إحدى الزوايا الظلية انتحيت ركنا قصيا، وبصوت مهموس، مسموع عاتبها.

فالبيريا.. أين أنت؟

وعندما اقترب منظم الجولة منى، من صاحبي، واقترح علينا تدبير عربة تمضى بنا إلى ضاحية خرتنك، حيث ضريح

الإمام البخارى. أبدي صاحبى حرارة وحسن استقبال
 للاقتراح، وطلب مجيء المعمارى الجزائرى معنا، أمر يسره،
 صرنا أربعة. جاء معنا دليل أوزبكى، ترجلنا، جزنا السور
 الخارجى، والمر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة.
 والباب المؤدى مباشرة. حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى،
 ويسطت راحتين. قرأت الفاتحة، ثم قرأت مادون من تاريخ
 ميلاد، وأخبار رحيل صوب الأفاق النائية لتحصيل العلم،
 تمتت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه
 المجيء إلى تلك الأصقاع، ومنهم بالطبع أنت يا أخى الأعز،
 فارقت الضريح والمسجد المجاور متهددا، فهذا موضع لن
 أجيء إليه مرة أخرى، وهذا كريم جليل لن أقف بقرية ثانية. أما
 رطوبة المسجد، وظلاله، ورائحة السجاد، القديم والجير الذى
 طليت به الجدران، فقد بلل هذا جفاف روحى، وأثار عندى
 شجنا غامضا.

تعرف يا أخى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من
 الحضرة القلبية أو الذهنية، لا يغيب عبيرها، لن أنسى من هذه
 الطلة، تلك الوقفة، الزيارة، أمورا عديدة، فمن ذلك لوانان،
 وعبارة، وحركة؛ أما اللوانان، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر،
 بياض رخام الضريح والفراغ المصفى، ونضرة الحديدية
 المحيطة، ولون الخشب المظلل لوحدة القبر، أما العبارة
 فمنقوشة على الشاهد، أذكر لك نصها:

«..وجاب البلاد، ونزل الأمصار، حتى بلغ شيوخه ألفاً
وزيادة..».

وقد لاقت عند زميلنا المعماري الجزائري نفس القبول
وجميل التلقى، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال، كما شاء
أن أقرأها له، والجزائري هذا صاحب غربة ورفيق سفر، إلا أن
ما قرينى منه هواه الزائد بالمعمار القديم. وعشقه لفاس،
وتلمسان، وقسنطينة، ورغبته فى زيارة القاهرة العتيقة، قلت له
إنه إذا جاء يوماً فساكون دليله. وقال لى إذا جئت الجزائر
فسيكون عيني الفاحصتين. وكان ما بدا منه، وما ظهر منى لب
المودة.

أما الحركة التى لن تروح من عندى أبداً. فمجيء شيخ
أوزيكى، جبته خضراء وحزام خصره حريوى عريض. منقوش،
وعمامته بيضاء، أما لحيته فكثة، جثا على مقربة. ولا مس
ركبتيه بيديه، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس، وتلك
سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مثنوى أمى وأبى، رحمهما
الله رحمة واسعة! فارقت ضريح الإمام، وكان الطريق
الخارجى مزدحماً، وقوم قادمين، ساعين للزيارة، ونهر
زارافشان متدفقا بمياهه. ومزارع قطن شاسعة، أما داخلى
فزاخر بفيض، وتوق، وشدة فقد، لو أنها بالصحة!

علت النفس يا أختى برؤيتها فى المزرعة الجماعية، إذ
تجددت المصدر، وسلام ميين، أما السماء فلاحت أبدية،

منبسطة، فيها أصداء القباب السمرقندية الزرقاء، كذا شهوق
المداخل المؤدية، ونمنمات الضوء المنبعثة من عينيها. وراء
بشرتها. وشموخ نظرتها الجانبية، كنت متحسرا على كل لحظة
تمضى وهى بعيدة عن النظر، على وشك أن أضع يدي على
سريان عبيرها خلال زهر الليمون، وظلال الأشجار، وترقرق
أجنحة الفراشات المحمومة، جلنا عبر المزروعات المغطاة، وقفت
عند قنوات المياه، ولأمر خفى، حننت إلى الإسكندرية، ورسوخ
قلعة قايتباي، ومداميكها الحجرية المواجهة لصخب الموج
وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج حراس أشداء، وأصداء
صياحات متجاوية، ورجال منقطعون عن الأهل والولد، مرابطون
تحسبا لهجمة مفاجئة تجيء عبر الفضاء البحرى الذى يفغر
فاه، فكرت فى مدينة سلاء هناك أقصى الغرب، وشاطئ
المحيط، قديم انقطع فيه مجاهدون أوائل، وشرفة حجرية كل ما
تبقى من حصن زال معظمه عند شاطئ تونس، وردت على
أعمدة مرمية غارقة تحت سطح بحر ناء، ومنحنى فى سمرقند
وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيدانا بتناول إفطارهما
الرمضانى. فى فؤادى تتشعب طرق، ومن غياهب ذاكرتى تفد
قوافل الصور. كذا حننت إلى نغم متمهل، يسرى باعنا أحزانى
جلت مع الصحب. وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة بذرات
السكر وقطوف العنب، متجعد الحبات بعد تمام النضج،
والتفاتتى فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية، وعندما لاح رفاق
الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض، غير أننى حدث

ببصرى، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل المتعة، وإما خشية ألا تكون بصحبتهم فأوثر البقاء فى مجال التوقع زمنًا، مرجئًا القطع. وبتري اليقين، غير أن خواء سرى عندى، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم ألحها، وعندما دنوا وصافحوا، كتمت استفسارى، تصدع وقتى، وحجبت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية، أثرت الانفراد، حتى إذا أنتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق وغبت فى الظنون. عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبى غانم، فوجئت بصاحبى يقف، يدق زجاج النافذة..

«فاليريا.. فاليريا..».

يلتفت إلى، وكأنه يعى قضيتى. يشير إلى الطريق..

«هاهى..».

أتابع إشارته، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة، على مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن، أين هى؟ أين؟ تمضى السيارة، لم أرها، مطامح شتى، وأودية عتيقة، معاطف، أغطية رأس؛ طفل يحمل زهوراً، فتارين صغيرة. الطريق منحدر، آثار المدينة تحدد مسارات الطرق، الأشجار باسقة، لكن ما من توليب، لا يبدو إلا معها، ولا يلوح إلا بقربها، يلتفت صاحبى إلى. قال مؤكداً..

«كانت تمشى هنا..»

تساءلت..

«بمفردها؟»

مط شفتيه.

«لا أدري.. لمحتها هي..»

هل رآها بصحبة أحدهم ويخفى عني؟ من أين قدمت، وإلى أين؟ وكيف أمضت الساعات الماضية؟ توقفت العربية أمام مدخل السوق، باعة الجبن الحلوم. والسجق، والخبز الأوزبكي، منتفخ الحواف، أخمص الوسط، ناصع الباطن، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة. أبطأت الخطى، مضى صاحبي مع الجرائري، أثرت البقاء والمشى بمفردي، ساقطع الشارع حتى نهايته، ثم أعبرت لأعود من الرصيف المقابل، لو أنى أراها فجأة، سأتوقف أمامها. أثبتتها شكوى فقدى لها، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى. فالمتاح من الزمن غير مساعد. توزع بصرى ما بين الواجبات والمارة، مررت على ثياب مزركشة، واشترت عطرًا محليًا ذا فريدة. وقلبت أغطية رأس ملونة مرصعة، منمنمة، وحافظات جلدية عليها صور محاربين قدامى، وحيوانات، وطيور كواسر، رأيت امرأة جميلة. متصلة الحاجبين، تماست نظراتها بنظراتي، ومضت ومضيت، استنفدت الوقت المحدد، أسرعت الخطى، محرك العربية دائر، حتى فى المطعم لم أرها،

ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها، وإنها لم تصحبهم إلى الجامعة صباح اليوم. قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة، وإنها مضت تجول بمفردها في المدينة، قلت: لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند.

قالت: لابد أنها تحسب وقتها.

قلت: أتعرف هي ميعاد الرحيل؟

قالت: طبعا..

ابتسمت ناتاشا. لاح في عينيها معنى، قالت:

«كانت فاليريا روح السهرة أول أمس..».

طالعتها بعينين أسيابتين، تابعت هي..

«إنها تفيض حيوية».

أومأت مؤكدا ما قالتها، غير غافل عن إشارات أيدتها بلامحها. اعلم يا أخى أن العصر والبرد القارس وأصدقاء المدينة الغامضة على، ناءت ولفتنى بوحدة، أما إفتقادها يوما بأكمله فضاغف الخواء والوحشة، صرت أتعجل الرحيل، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع، غير أن الأمر لم يأت بما توقعته يا أخى الكريم. فعندما دنا الوقت، وتحركت السيارة صوب المطار، كانت غيببتها مستمرة، أيعنى ذلك تخلفها هنا؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه، أو التقت بنفر

من قومها . شغلوها ورتبوا لها ترتيبا مغايرا . رحلت أخاطبها على البعد: لم يصلك ما عندي ولم تلمحى ما يمر بى لم تدريكى، ولو أنت أطلعت على قبس لما ضيعت يوما كاملا لم أرك، لم ألمحك فيه. أوليت ظهري لسمرقند، عاصمة تيمور، لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا، مرة إلى الشام، ومرة إلى الهند، وآخر الخرجات إلى الصين. أوليت ظهري لطوابير الغنائم، للسبايا الجميلات. لأولوج بك الفلكى. للخوارزمى، لمثوى ابن سينا المجهول، لليال متوالية تطلعت فيها عيون متفحصة للسماوات العلاء، لمقرية مندثرة فى وادٍ بعيد هنا أوى إليها يوما بناء أجهله، أو رسام لا أعرفه، أو قاصد سبيل متغرب عن موطنه، كان الغروب يدنو، والمطار ممتدا، فيه شىء من لانهائية الصحراء، وأبدية الوقت، ومما تعجبت له عند مطالعتى تصميم المدينة، أن هذا المطار أقيم فى نفس موضع الباب الشمالى الذى كان يخرج منه القاصدون بخارى، فهذا موضع مفارقة، ومكان رحيل دائم، اعلم يا صاحبنى أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب، كل منها يقابل جهة أصلية، فالشرقى يؤدى إلى الصين البعيدة، والغربى سمي بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك، أما باب كش، أو الباب الكبير، فكان يؤدى إلى موطن تيمور الأسمى إلى مسقط رأسه، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلقا. أسفا. أرقب طلثها أو قدمها، سألت صاحبنى عما يظنه سببا لغيابها. أبدى دهشة، قال إنها محيرة، صمت لحظات ثم قال، إنها تحب

الاهتمام بها، أن تكون محورا، ومركزا، وقبلة للأنظار، ولا بد أنها ستظهر فى اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها.

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى، لم يعجبنى، إنها محور دون أن تقصد، وبؤرة بغير تعمد، لحت الهندى وصحبه، سارعت، استفسرت منه ضاحكا - كأنى لا أبالى، كأن سؤالى عرضى - عن مرافقتهم الجميلة، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم. ابتعدت رحت وجئت، عدت أقول لصاحبى إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة؟ كرر صاحبى، إنها محيرة؛ انصرفت عنه، قلت لئاناشا، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا. مطت شفيتها، سألتها، ألم تكن بصحبتها فى الحجرة؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها؟ قالت إنها لم تكن فى الغرفة. أما حاجاتها فكانت مبعثرة، جاء صاحبى، أفضى إلى نبأ. أرسلوا عرية للبحث عنها..

قلت:

«لا أدرى كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها؟».

ردد..

«إنها غريبة».

ثم ابتسم، ثم قال..

«تبدو مهموما لغيابها».

جاوبته باختصار.

«إن الأمر جدا».

مع اكتمال المغيب. أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية، فبدأ متصلا بالغيب، بالمجهول، وفى الأعالي تتغير السماء السمرقندية بسرعة فى مواجهة الليل المقبل، اعلم يا أخى أننى عندما أفارق أرضا رأيتها أول مرة أتساءل. هل سأراها مرة أخرى؟ تذكر يا أخى رحيلنا عن فاس، عندما ضمتنا صحبة معا، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية، كذا واجهات البيوت، كنت أتراجع بظهرى، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين. لم أكن أريد مفارقة الزوايا، والعطوف، والنواصى التى أحسبت، هذا حالى أيضا فى لحظاتي السمرقندية الأخيرة، وإن مازج أمرى هنا انشغالى بتلك البنية، أضاف ذلك وجدا على وجدى، كانت الثوانى تنسل، والقوم وقوف، لا يبدو عليهم اهتمام بغيابها، أنه انتظارهم، عادى، لا ترقب فيه ولا قلق، عدا رجل رافقنا من طشقند. كان مسئولا عن الرحلة، بدا مشغولا لغيابها ولكن من وجهة غير وجهتى، ومن منظور يخالف منظورى، فجأة سرت حركة بين الجمع، امسك كل منهم بحقيبة اليد. أو ما سيصحبه إلى الطائرة، لم أدر من أشار ببده الحركة، غير أن جنديا أسرع الخطى، وفتح

البوابة الحديدية الصغيرة التي تتخلل السور، بسط ذراعه فوقها، كأنه يشير إلينا: تقدموا. كان علينا أن نعبّر واحدا بعد الآخر، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم، أبطأت الخطى، بل توقفت لحظات حتى إن صاحبي تطلع إلى مُستفسرا، مازحا قال.

«هل قررت البقاء هنا؟».

لو أنك مكانه يا أخى، لو بصحبتى، لسألتنى بنفس اللهجة، فالكت بمفردى يبدو مستحيلا، فى رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقا لنظام محكم، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير أنك يا أخى تعرفنى أكثر، إذ بدأ الخاطر عندى، وتصاعد. أن أبقى حتى ألقاها، ألا أرحل بدونها، ولم يبق إلا انسحابى خفية، أو إعلانهم بقرارى، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر، أرقبها، وأتملاها، وأتمناها، سأرجع إلى المدينة، إلى الفندق، وعندما ألتقى بها، ستبدو الدهشة فى ذرات ضوءها، عندئذ لا أدري، هل سأبقى صامتا لثوان، أم أشرح لها ما فعلت؟ هل سيصلها جواى واتقادى لحظتها؟ عندئذ أقول لها إن تخلفى سيثير اهتمامهم، فأنا غريب، محدود المدة، وسيبدون لى من تسهيلات العودة مالن تلقاه هى، لذا أثرت التخلف والبحث عنها خشية أن. تصعب عودتها..

لكن!

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الخاطر تبطئ مسارات الأمور، تتمهل النوايا، ويلوح مفترق. ماذا سيقولون،

وكيف يفسرون بقائي من أجلها: أنا من لم أجهر بعد بالقول أمامها ولم أصرح. كيف أخاطر بالبقاء فى مدينة أجهل لغة أهلها، الأمر أصعب وأعقد، هكذا رحمت وجنت، درت على وترددت داخلى، أقلعت صوب جهاتى، فما يكاد شطر منى يولى القصد تجاهى، حتى يرتد شطر ثان مبتعدا عنى، وما إن أوشك على الرسو عند ساحل ذاتى حتى يهتز قارىبى. يختل. فأنأى وأقترب. أميل وأعتدل، لم أحسم، وهكذا مضيت مساقا صوب الطائرة. آخر القاصدين، وأتس الراحلين، متثاقلا، كارها مسارى، إذن سنقضى ليلتنا المقبلة فى طشقند بدونها، لن تصحبنا إلى العاصمة فكأن السعى فى مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت. هناك عند البوابة يقف جنديان، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما. تواريت فى المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلى مبتسمة وكأنها تدرك ما بى ساخرة، لم أقعد يجوار أحد. وضعت حقيبتى الصغيرة بجوارى، من يدرى، ربما جاءت فى اللحظة الأخيرة، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين. تطلعت عبر النافذة الرمادية، غبش رمادى متزايد. أصداء المدينة التى لا تلوح لناظرى، القريبة، البعيدة الآن.

لكن .. ماذا؟

هل تخف لهفة المشتاق؟ هل ينزاح الثقل؟ لقيت نفسى يا
أخى يردد بصوت هامس، عاتب، متدفق النظر إليها حيث
لاحت، ويانت..

لماذا فاليريا؟ لماذا لماذا؟

أعاتبها، أهدهدها، ضاماً إلى ما يشع منها لهفة وخوفاً إثر العثور عليها في اللحظات الأولى، روم. حان، متهدج، غير مصدق، فأحذق أطلول، ثم أقربها، مستعيضاً عن النظر بالتقريب، بالضم، بينما عتابى المنطوق لم ينقطع. تعرف يا صاحبي أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحياناً. أما مغنياً أو محدثاً، ربما بدافع خفى، قديم من الأزمنة المندثرة. إذ يلقي نفسه وحيداً في غابة، أو قفر، محدقة به أخطار شتى، وأفظعها الجهول منها، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيته، ولحظة أنبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة، ظهر تكوينها فأنست منه أمناً، أبرزت ورقة للجنديين. صاح شخص كان يقف تحت الطائرة. تجتاز المسافة، لا تعدو إنما تتدقق، مويجات، رخات مطر، رشقات مصوبة تجاهي، أما دخولها فاندفاعة وتفجر نبع، خطوتها الواحدة نقلتها إلى الأمام، تجاوزتني لم تر المقعد الشاغر بجوارى، صاح الجمع كلهم وناداهم بعضهم باسمها، واستفسر آخرون عن غيابها، وأبدى البعض اهتماماً مفاجئاً. عداى! لزمت السكينة، وقففت تخلع معطفها، تروض نفاً شعرها، ولم تكن إلا مبتسمة، ولم تكن إلا مشعة، مهورة بالضوء، بالألوان، جلست فغابت عن مجال عيني، وأبت وجهي شطر السور، البوابة التي لم تعد موضع ترقبى الآن، السيارة التي مضينا بها في الصباح إلى ضريح الإمام البخارى، ترى إلى أى مقعد جلست، ليتها مست المكان الذى شغلته، فنلتقى

حيث لم نلتق، قربت وجهى من زجاج النافذة، أرقب جريان الأرض. لحظة انفصالنا عنها، هذه سمرقند من عل، لم أدر هذه البيوت، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد؟ بدأ سحب، تزايدت كثافته، لم أعد ألمح شيئا. غربت سمرقند فى الليل والغيوم، كنت راضيا، مرضيا كأنى ارتحت من لهاث أعقب ركضا. لم أتطلع تجاهها، لم أحد بنظرى، فما أعجب وما أغرب!. إلا أننى عند وصولنا الفندق، بعد اتجاهنا إلى الغرف، بعد نزولى إلى المطعم، بعد دخولها، قمت إليها، دعوتها فلبت، قلت لها إننا غدا سنكون فى موسكو، ينفذ الإطار، ويعد أيام ثلاثة سافارق إلى موطنى. ومن يدرى. قد لا أعود إلى هذه الديار مرة أخرى، ما أريده دقائق كى أحدثها، بمعزل، بمنأى، إننى أدعوها إلى غرفتى.

توقفت متهدجا، إنها ساهمة، مدت أصبعها..

نتحدث!

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة، وكثيرا من النذر..

قلت:

بالطبع..

قالت:

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى؟

قلت:

فى أى مكان تشائين..

ثم قلت:

قصدى الانفراد.

قالت:

إذن.. سأنتظرك بعد صعودى..

هنا صارت دقات قلبى دوارج، حتى أنهكت بما يجرى
داخلى مع أنى وثاب، فاغفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى
أمرى..

توق

.. اعلم يا أخى الحبيب، الصاحب، القريب، إن أصعب اللحظات ما يتم فيها التأهب، حين يللم المرء شتاته. يحاول أن يجيء من هنا وهناك بما يمكن أن يعنيه ويقويه. الأشق انتظار الفعل، وليس الفعل ذاته، اعلم أن أوعر ما مر بي فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى، وليس التعذيب عينه، أثقل ما عرفته أثناء القتال ما يسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك. أصعب مراحل المرض الجهل به، ما من مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة. وأكثر ما يكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء، فيذهل عما حوله، هذا ما جربته، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش

اللحظة إما قبل حلولها. وإما بعد انقضائها إما في السابق
وإما في اللاحق، لك إذن تخيل حالي. وما صرت إليه قبل
المضى، أحقا سأنفرد بها؟ هل ألقى نفسي في القريبى بهذه
السرعة؟

كيف سأبدأ؟ بأى جمل أفتتح حديثي؟ ماذا أقول؟ بل
الأدهى، ماذا أريد؟ كوكبها أسرنى، هذا حق.

أدور في فلکها؟

هذا حق.

ها هي الفرصة تتاح الآن لأفسر، وربما أعقب ذلك أمر، هل
أرمى إلى إعلان حقيقة ولهي وجدبى؟ نعم. لكن أيكفى هذا؟

كلا ثم كلا!

إذن.. هل أبغى الفناء؟ الاتحاد؟ لا أدري، هل أمى ضيق
المدة، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات؟ فإلام
أرمى؟ أى وصل أبغى؟ وصل عابر؟ هذه لا يطابق كنه حالي
إذن.. مالى أتعلق بالصعب؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على
رده؟ مالى أوغل في درب قد لا أستبدل على عودتى منه؟ رجحت
أقلب أمري، حتى مرت بي لحظات ندمت فيها على سعبي، مع
تمام وعيى أن الأمر ليس بيدي منه شيء، فإلى أية غاية؟ تعرف
يا صاحبي أننى عندما أكون في جمع أحتمى بهم منى،
وأحصن منهم دفعا لى. وقديما قالت لى محبوبة همت بها

قدرا، أنت تتكلم حتى لا تتكلم. لحظتها فوجئت، أدركت أنها كشفت بعض سرى، وما أسطره لك يا أخی لم يطلع عليه أحد، ولا أقرب الخلق منى، فهل أنا بحاجة لتنبهك إلى الكتمان والصون؟ أمل أنك ملبٍ. للمت شظاياى. تناولت لوحة صغيرة، فيروزية اللون، عليها نقش عتيق، حملتها من أرقعة قاهرتى العتيقة، أبدعها عجوز تجاوز التسعين. آخر جيل المهرة فى النقش والترميم، نوافذ الجص، والأفاريز، والعتبات المؤدية، حملتها معى خلال أسفار عدة، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق، لوحة بسيطة، خلومن أى صدف أو حجر ثمين، لكن لنقشها رقة وترجيح وإيحاء، أن لها الانتقال عنى، تناولت حذرا من حقيبة يدى التى لا تفارقنى، جلت بنظرى فى الحجرة، الحقيبة، الكتب، السرير الذى لم أرقد فوقة بعد، رفعت سماعة الهاتف، عندما جاعنى صوتها بدأ نائبا محاطا بغلالة من ظلال، استعدت مرأى شجرتى التوليب، والغبشة الصباحية. رواحها ومجيئها، منذ لحظة سريانى صوبها..

تعال .. أنا فى انتظارك..

اكتمل تأهبي، بدأ شروعى، كل ما أريده عند المثلث أمامها، عند الانفراد، أن أوصل إليها بعضا مما عندى، أما أن أرحل بهذا التفجر كله فألى جانب أنه حمل ثقيل، فلا شك أنك توافقتنى على ما فى الأمر من ظلم. أن أشعر تجاهها بهذا الدفق كله، ثم امضى دون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس،

مررت أمام الأبواب، تتوالى الأرقام، وعندما وقفت أخيرا لم أطرق مباشرة، إنما تطلعت، قديما قيل إن مشاهدة المحبوب هي أعز مطلوب. وعندها يجب التزام آداب بعينها. منها الثبات وعدم الالتفات والخشوع والافتناع والخضوع، وتنسم رائحة المحبوب، لكن من هو مثلى، هل يثبت؟ من قام بثيابه الحريق كيف يسكن؟ النار التهاب وملكة، فلا بد من الحركة. من هداً باللقاء قلقة فما هو بعاشق، كيف يصح والعشق كله ظهور، مددت يدي مرتين ولكنني انثنيت. ثم حزمت أمرى، وعندما فتحت بدت كنصب أبدى للجمال، للحقيقة الناصعة، لم تكن مرتدية إلا قميصا أزرق يتيح لعنقها الانسيابي الظهور، ولصدرها البروز والمناداة. فى اللحظات الأولى أدركتها فى جملتها، ولم يهدأ قلبي، قعدت بعد أن أشارت إلى، لا أدري والله يا أخى ما قلت، ترتج ذاكرتى وتغيم على، تعرف تبدد الكلمات الأولى، حتى ما تفوه به إلى أقرب الخلق منا تصيبه الذاكرة وتطمسه، أعى الآن اللحظة التى بسطت فيها يدي. تطلعت إليها بكل ما امتد ورائى من أزمنة قدر لى أن أعيشها. وأمكنه ارتدتها أو أقمت بها، وأشواق طافت، وأمورى المبهجة، عندما لمست أصابعى أصابعها وعندما تلامس مشارف وجودنا الحسى، قبضت يديها، وعبرهما تدفق منى إليها حنو ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القربى، رفعت إليها ابتهاج عيني، لم أستتر، لم أتوار، لم أبذل الكد لأظهر ما أبطن، كنت أتأهب للتأهب للاندلاع، كنت أرتد بشرا سويا، أستعيد زمن زهوى

ونضارتي، والله يا أخى، يا صاحب الأيام الصعبة، لم أكن راغباً إلا فى الحومان عند أطرافها. والتحليق بأقصى أفقها، أطلع إلى مواردها لا غير مع علمى ويقىنى أن فيها ريبى، غير أننى رصدت تبديلاً فى ملامحها، كأنها ستنبهنى إلى أمر، بينما لاح عندها ما خيل إلى أنه ندم، أو رغبة فى تدارك أمر فات وأوانه، ماذا فى الأمر؟ ألم تقل إن زميلتها ستسهر حتى الفجر، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى، ألم تؤكد أنها بمفردها، لكن.. أتدرى ما أفضت به إلى، أتدرى؟ قالت إن صاحبنى سيجىء بعد دقائق، إنها دعتة.. لا. سأورد لك ما قالت بالضببط أثناء تراجع قامتها قليلاً..

لكن صاحبك قادم!

بدت لهجتها محيرة، كأنى المسئول عن دعوته، هل أدركت أخيراً، فى هذه اللحظات. دقة وصفاء وعنفوان ما عندي؟ كنت يا أخى أعول على نكاتها البادى، على أمور خفية قربتها منى، متمهلاً سحبت أصابعى، أطرقت حزيناً، خائباً، راغباً فى النأى. فى التوارى، فى التوحد، فى الإيغال مبتعداً، على مِول تصاعد غضب، أن تأبى هذا حقها، أن ترفض الانفراد بى هذا مشروع. لكن أن تسخر. فهذا صعب على. وعر تحمله، ليتنى لم أجاورها، ليتنى بقيت فى مدارى، لا أحاول الاقتراب، لذت بى، بصمتى، تعرف يا أخى أننى لطول ما عانيت. لشدة ما قاسيت، صرت أتقن إخفاء ما عندي، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى

قسماى، لكم تمنيت بسط نفسى أمامها كل البسط، أن أفض مغاليق شتى، كان الأمر ثقيلًا. ويبدو أنها لمحت بوجهى ما نم عن طويتى، ما جعلها تنظر إلى هذا النظر الطويل. وتعاقت على الأحوال، فمن خيبة أمل، إلى خجل غامض، إلى رغبة فى الرثاء، فى البكاء، حدث بنظري، وليت عنها، هذا مرفأ غير صالح لرسوى، هذا محط غير آمن فلا تجنبه، هذا سراب فلا تنبه. هذا ظل كاذب فلا حذر، فلا مض فى هجيرى المقدر، شرعت فى التهيؤ للانصراف، هنا طرق صاحبى الباب، بدا غير مفاجأ بوجودى، ما أصعب الوقت على وأنا أحاول إسدال الحجب حتى لا يتسرب من أمرى خبر، ترى.. هل أخبرته بحوارى معها، برغبتى فى الانفراد؟ ترى.. هل يضر سخرية منى؟ لم يغلب على خجلى، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد، أما ونكسى مازال فى بدايته، وأنا ما زلت بعد أعبر تلك اللحظات الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء ديبب الألم، فلم أكن قادرا على الجلوس، أو المنادمة، تحركت هى، فتحت حقيبة زرقاء، أخرجت حلوى سمرقندية. قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن هناك أطباق، إلا تناولت طبقين صغيرين، يتوسط كل منهما كوب زجاجى، وضعتهما فوق المنضدة. لم يفتنى أنها قربتها منى، وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى، فى غمار غمى لاحظت ذلك. كنت قد تراجعت عن الانصراف، لا أخفيك يا أذى أننى لم أشأ تركهما معا، بمفردهما، ستقول إنها الغيرة، أقول يا أذى لو أنك أنت ثالثا لتركتهما معا، ستقول

هذا عن شدة تعلق، أقول وهل أعلنت صور تعلقى أو هواى؟. المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة صاحبنا الجزائرى، وأخرى كانت تظهر وداً لصاحبى، بعد قليل جاء، صرنا خمسة، أصبحنا جمعا، وهكذا احتميت بهم منهم، أمكننى التوارى إلى حين، أثناء الحديث التفتت إلى مرات، مرة سألتنى عن صمتى، ومرة قطبت عينيها متسائلة، ومرة ابتسمت بود وترحاب، تحاشيت تسديد النظر إليها. أو الدخول معها مباشرة فى محاوره. حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب ووقت معلنا تعبى، ورغبتى فى الماضى، خاصة وأن سفر الغد طويل. غير أنها وقفت مقطبة الحاجبين، مشدودة الجبين، طلبت منى أن أبقى، أبديت ابتهامة لا يحب رؤيتها من يعرفنى. سدت طريقي، أشارت بيدها صوبى، اكتست ملامحها جدية، قالت بلهجة تحاكي فيها الخطاب الرسمى..

«أمرك أن تبقى..»

أتبعث ذلك بابهتامة. ولم يغب عنى المعنى البعيد فى إيقاع صوتها، بحق مالى عليك أمرك أن تبقى، كما انتبعت إلى دلالتها. تطلعت إلى الصباح، لبیت، عدت إلى مكاني، لم أدر كيف مضى الوقت، ولكننى عاودت إبداء رغبتى فى الانصراف، لم تتن عزمى فى هذه المرة نظراتها الملومة، ولم يلح على أحد، بل إن الجزائرى قام واقفا، قال إنه يود الذهاب أيضا، عندئذ تأهب الجمع كله. كنت أول الخارجين، وعند اجتيازي الباب

أدرت بصرى، لمحتها واقفة، متطلعة نحوى، وحيدة تماما، عند
المصعد مال على صاحبى..

«أقترح عليك العودة».

بوغت. تطلعت إليه متسائلا..

«عند وصولك غرفتك. اطلبها فى الهاتف، و ..

قلت باختصار

«لا أرغب»

«يا أختى، ألم تخطى فى عينيها اهتمامك بك، نظراتها إليك..»

نظرت إليه وكأنى بعيد..

«إننى متعب..»

بدا متعجبا، مضيت إلى غرفتى، مرتد النوايا، خاسئ
الخطى، راغبا فى الانزواء. قعدت عند حافة الفراش منحنيا.
ممسكا اللوحة الجصية، لم تتح لى فرصة حتى أقدمها، لا
أرغب شهر هداياى فى حضور الآخرين، أزحت ثيابى. اطفأت
المصباح الحاد نافذ الضوء، رددت: آخر ليلة فى آسيا
الوسطى. ثم فكرت: فى أى اتجاه أسير صوب مدينتى؟ إلى
دروبيى التى أعرفها. فى اتجاه هذا الجدار أم ذاك؟ لو مددت
خطا مستقيما من نقطة رقادى هذه، بدايته هنا ومنتهاه فى
القاهرة، كم يبلغ طوله؟ هذه الأرض المقام فوقها الفندق، من

وطئها؟ هل داستها خيول جنكيز خان؟ جيوش تيمور، أم كانت محطاً لقوافل تجار الحرير. لماذا تبدو السماء هنا أرحب، محسوس انبساطها حتى وإن لم تقع عليها العينان، أما في بخارى فمحيطه بالمدينة. تلفها من كل جهة، ولا تنبسط فوقها، أما في سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل والقباب والنقوش والآيات البينات. استعدت انحدار طريق سمرقندى، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح، وقبة توشك على الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقه ألوانها، تقلبت مرة ذات اليمين، ومرة إلى الشمال، ثم قمت قاعداً فى فراشى..

أنا فى الطابق السادس. هى فى العاشر. غرفتى أول المرمر، غرفتها آخر المرمر من الجهة الأخرى، عبثاً حاولت طرحها، اقصاءها عنى، عبثاً لجوتى إلى ما تصورت أنه تدايعيات ما قبل النوم، بدت خواطرى وبودهى كحظيات سكون الماء قبل غليانه، اهانتنى، سخرت منى، كيف قبلت البقاء بعد ذلك؟ تطلعت إلى الهاتف، أيمكن أن أصغى إلى صوتها فى هذه اللحظات، ألا تزال بمفردها أم عاد إليها أحدهم؟ إنى مرهق، متعب، مكدود، راحل غداً، ولانى منكسر، معكوس الخاطر يا صاحبى فقد أنتابنى رثاء لذاتى، ورغبة فى نعى أحوالى. وفى مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان سعيه فى أوقات ضعفه. لم أكن تعباً بإرهاق يوم أو يومين، ليس بتأثير خيبة. لكن بما أحمله، بتراثى كله، أستعيد رقادى إثر مرضى منذ عامين، تذكر عندما عدتني مرارا، أوقات الظهيرة بحرهما القاسى،

ووجدتها الجافة التي مرت على. وأصوات الطريق الذي لم أكن قادراً على الخروج إليه. كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذي كان، جئت إلى أرقى بلحظة ليلية نائية بعد عودتى من سهرة قضيناها معا توقفت فجأة أثناء سيرى، إدراكى أن حديثنا عما كان يفوق حوارنا عما هو أت، أيام نائيات ظننا يوماً أنها الغاية. أنها لن تبديد أبداً، انقضت، ولت، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا لنستعيدها. أورتنى هذا شجى، ذلك مالم تعرفه تلك البنية عنى؛ مالم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزما ظننت أنه ذوى، وقدرة على البوح طال خمودها، لكن أنى لها ذلك ولم أخاطبها إلا فى جمع، أنى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات أربع. وتلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد، لا يخشى الطوارق، الدواهم، يسألنى بعض من لا يعرفنى، لماذا تبدو مسناً وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل؟ معهم الحق يا أخى إذ إنهم لا يعلمون، لا يعلمون أننا مررنا بمراحل تبدو متقاربة لكنها متباعدة. ولم يكن الحمل يخصنا، ولكننا لم نلقه، ولم نتخلص منه، إذ إنه متصل بقومنا، وجمعنا. بعض مما عرفناه كان ممكناً أن يهدد جمعاً، لو أفضت فى هذا، لن أكف ولكننى أضرب لك مثلاً بعصر انقلاب الأحوال. وانعكاس القيم. الذى عشناه وعصف بنا فى سبعينيات زماننا، وأنتى لمحدثك يوماً عن رسالة ضمنيتها بعضاً مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى أثر الغربية. وسميتها رسالة البصائر فى المصائر، لذا أقصر

الآن، ولا أفصل!. إنما طال تلميحى لأنبهك إلى ما عنته البنية
 بانبثاقها المباغت، بحضورها الواج، بحيويتها، فكأنى
 قصدتها لأنهل منها تريقا يجدد ما بلى. وينهى عبوسى الذى
 طال. لو أنها صدتنى لا نثنت، لكنها.. سخرت. أليس ما أتته
 عين السخرية؟ بلى، شيئا فشيئا اتقد دماغى. لمت ذاتى، كيف
 أقذف بنفسى تجاه من أجهله. هل بهرنى جمالها؟ كيف
 سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة، فى نفس الطائرة، لن
 أتطلع إليها. لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه، وإذا أقبلت
 نحوى وخاطبتنى، فسأبدى لها الجفوة، سأسمعها ما يقوله
 محب بعد انقلاب العشق إلى بغض. مع أن المحبة لم تمتد
 بيننا، وما جرى هبوب من عندى تجاهها.

أغمض عيني، العتمة تهن فى الخارج، والنوم قصى. أما
 قلبى فيعدو جامدا فى أثرى، أحمله مالا يطيق، أخشى ما
 أخشاه أن يتعثر، أن يكبو، أمامى سفر طويل، إنى بحاجة إلى
 الراحة، فلماذا لا اهجج، لماذا لا أغفو، هل نامت هى مباشرة
 بعد انصرافنا، أم أنها تتقلب بين ذراعى رجل من قومها،
 استدعته بعد ذهابنا، ميراثه ميراثها، وما احتاج مراحل
 متوالية لأشرحه، لأوصله لها، يدركه هو فى لحظة، قمت من
 رقادى، متطلعا إلى رمادية الضوء، إلى طلائع النهار الآسيوى
 البكر، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى!.. وما أقرىها!..
 تطلعت إلى الصوان المقابل، إلى دورق المياه، إلى الراديو
 الصغير. وحقيبتى التى لم أخرج محتوياتها، أما اللوحة

الجنسية فعلى مقربة منى. كان من المفروض أن تكون بين حاجاتها الآن، أطرقت، تساءلت، لماذا أقسو عليها؟ ما ذنبها؟ إنها لا تعرفنى، وما أنا إلا فرد فى جمع، ذات جمال مثلها لابد أن القصاد طرقت السبل إليها، وأسمعوها من الكلمات أرقها. ألم تقل لى عندما أظهرت البادرة الأولى..

«.. وكيف أصدقك؟؟».

غير أننى اتكلت على احساسها الأنثوى، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا. بدا لى أن مكنونى سيصل إليها، لكننى كنت أعول على بى. أو أطلب العون منى، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع. مفرق، متحامل عليها، مبرر لها، قاس ومشفق معا، أتطلع إلى الفراخ. إلى النهار الجديد، لو أغفو نصف ساعة، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع. نأت الخواطر وفرت، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة. مشتعلا بنصبى، محاطا بوحدة صماء، انحنى ببصرى متمهلا على الحديقة الأمامية، أقصد شجرتى التوليب، أو شك على نرف وجدى، من هنا كان البدء، بينهما سعت، فى مجالهما اكتشفت مدارها، كنت يا أخى أصغى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى، إذ رن جرس الهاتف فجأة، رنيننا حادا، متصلا، ماذا.. هى؟ أتدعونى؟ إذن.. هل مرت بما مررت به؟ ألقها الأرق كما لفتنى؟، أتدعونى لنقابل النهار معا

كما كنت أشرع فى الزمن القديم؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف، وعلى ملامحى مشروع عتاب، لا أدرى كيف سيكون جوابى، أمسكت على أنفاسى، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها، مجهولة عندى تماما، لم أفهم، قلت بالعربية متجهما ..
لا أعرف، لا أعرف..

من هذا؟ من أية جهة؟ ماذا يريد؟ كيف فى هذه الساعة؟ خطأ أم قصد؟ محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة؟ لا أدرى نفضت هذا عنى، تطلعت إلى ساعتى، الثانية والرابع فى القاهرة الآن، أضفت أربع ساعات، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة إرهاق وبين بدء تعب جديد، يحوى القديم، وليت وجهى تجاه النهار القادم، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق، واجهت الضوء المتزايد، نضاحاً بضرى، بأساى، منطويا على ما استقر عندى من نوى، كنت متستسلما لتوالى مجيء النهار الجديد. فأنا يا أخى حسير!

مواقع الشهب

تحاشيتها !

فى الصلاة المتوهجة بضوء أسىوى انتحيت ركنا قصيا،
مغمضا عينى المجهدين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتائر
تعبي، داخلى ظلال من شجر توليب، وقباب، وفضاءات لا
نهائية، ومسارب بعيدة لمياه منحدره، عما قليل سأجوز الفراغ،
تلك أرض ربما لن أطأها مرة أخرى. وهذه ديار لن أجوس
خلالها، مقامى بعيد، دنا صاحبي حاورنى، تجنبت الخوض أو
التلميح، وعرف هو فالتزم، قال إن إجهادى واضح، قلت إننى
أرقت بعض الوقت، لم أبح له يا أخی بسهادى، لم أقل له إننى

ما غفوت منذ صباح أمس، وإن ما أخشاه ألا يتم قلبي رحيله
 معي، لكم أثقلت عليه، لكم حملته ما لا يطيق. ساعات طوال من
 الرحيل. وما هو إقلاع وشيك، أتأهب لإقلاع مغاير، من شرق
 إلى غرب، من أرض إلى أرض، من مواقيت إلى أخرى، طاويا
 خيبة أمل، ونكوص بعد إقدام، سرى في الجمع تأهب، فوق
 أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات، ملامهن الآسيوية
 جميلة بادية، يحملن باقات زهور حمراء، ملت مقبلا الطفلة،
 حدقت إلى عينيها الواسعتين، المقبلتين، هاتان لن أقابلهما مرة
 أخرى. لن أطالع نظراتهما، تلك لحظة لقاء عابرة، يعقبها تفرق،
 كتماس الشهب، تعرف عنى يا أخى طول تأملى لهذه اللحظات
 العابرة، ولعلك محتفظ بعد برسالتى إليك عن الاغتراب واللقاء،
 لعلك تذكر وصفى لتلك المدينة الصودية الهادئة. المدثرة
 بالأشجار والنبات، وخطوى فوق الأرض المبلطة بالحجر، عندما
 ظهرت شابة، وأثقة، متزنة الخطى، قاصدة. اجتازتني ومضت
 مبتعدة مخلفة حضورها القوي في الفراغ، خلف ظهورها
 العابر عندى هياما غامضا واستفسارات شتى، عرفت مثل هذه
 اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك. إلا أننى أقول عن حنوى بالنظر
 تجاه تلك البنية الصغيرة التى ستسعى بأرض وأسعى بأخرى،
 وربما لن نلتقى أبدا، كما لم نلتق قط، صافحت القوم، وعند
 اتجأهى صوب الطائرة الضخمة، الجائمة، لمحتها، تمضى بين
 القوم، فارهة، علامة دالة مدلة، تتناول باقات الزهور من
 زميلاتها، تجمعها. تضحك تبدو لاهية. فهل لى أن ألوم؟ هل لى

أن أعتب؟ هاهى تمد الخطى غير عابئة بالالتفات حتى، تتخطى البعض، ترتقى السلم وثبا، أحرص على تباطؤ. ما أوده أن ألوذ بمقعد منفرد، أن أجاور من أجهله، أغفو ولو ساعة، اخفف من كددي، المقاعد الأمامية مشغولة، ألمحها عند نهاية المقصورة إلى اليمين، تقف ولم تقعد بعد، حدث إلى المر الأيسر، تقدمت غاضبا بصري، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله. وددت سرعة التوارى، التدثر بوحدتى، غير أن ما جرى يا أخى عجب. فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى، تقدمت صوبى أثناء إشاحتى إلى الجهة الأخرى، لم تنادنى، لم تلفظ اسمى، إنما قصدتنى، أشارت، ولم يكن بوسعى إلا التلبية متوثب الروح، خافق القلب، صامت، لا نطق ولا قول، إنما كلى بهت وغيبة عن حضورى، رأيت معطفها مطويا. مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غيرى، أما ما رقرق وقتى وذرى تعبى فمرأى الزهور، الباقات التى جمعتها من زميلاتنا، ثبتتها فى ظهرى المقعدين الأماميين، وزعتها بالتساوى، فى تنسيق بديع، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت: هذا من أجلك.

توقفت، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة، وعندما استوت، ولت وجهها متطلعة إلى مالا أدريه، أسلمتنى يدها، فتخلت أصابعها حتى امتزج إحساسى بإحساسها، فلم أعد أدرى أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت إرادتى عن تحديدها، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد.

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدى منه قدر ولو يسير، لبيت
والرضا متمكن منى، فكأن غضبى وحرزنى لم يكونا إلا عتايا
دقيقا لم ألفظه، أو تمهيدا لما صرت إليه. ما إن جاورتها
صامتا، ساكنا، متشاغلا بالنظر إلى الزهور، متأملا فى مغزى
صفها لها ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيته، فكأن أرقا لم
يقضنى وسهادا لم يطرقنى، بل إننى لمت نفسى لسوء ظنى،
وتحاملى عليها. لا أظنك تعد هذا ضعفا منى، حتى وإن بدا لك
هذا فلا ضير على ولا خجل أبديه، تلك لحظات انتفت فيها
الحسابات، حرام فيها القول بما يجب الإقدام عليه، وما ينبغى
تجنبه، فى حضرتها لا أتقنع ولا استعير. ولا استعين بما ليس
عندى. هذا حالى أبسطه كما هو. نقيا صافيا كقطرات الغيث
قبل ملامسة اليابسة، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان، إنى
مذكرك، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد
انقضائه، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر، وعند استعادته
أما النظرة فتكتسى المعنى وتنفذ مندمجة بذات المتلقى، العجيب
أن تعبى تدرى، وإرهاق قلبى ولى، منها سرى دفق إلى
أوصالى، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا، فكأن القوم لا يحيطون بنا،
علقت بابتسامتها الثرية، وخضعت لألق عينها، أما جبينها
فبدا رحبا، لا نهائيا، وقامت بينى وبين غمازتها صلة، أنثيت
إلى توالى ابتساماتها، تلك المضمومة منها، أو التى تحاول
للمتها قبل انفلاته ربما لا تدرك عقباها، أو الهادئة المصاحبة
لإيماءاتها، أما هذه التى تضىء ملامحها كلها بضى خفى
المصدر، فلها شأن يغنينى.

الأمر شاسع يا أخى، يا أعز صاحب، وربما أفردت يوماً رسالة أنبتك فيها بالابتسامات وتعاقبها، والالتفاتات وتنوعها، وانفعالاتها الشتى، والانديفاعات المفاجئة، والبوح، والزمن وما حفل، والوقت الذى جرفنى وطوانى وأحال ما كان منى إلى دوارس، غواير، فأدرك يا أخى ما مر بى، وفق الله أيامك. ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس، ونحن ما بين الثرى والثريا؟ أقول بعضاً من كل، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف، أرتنى ما اشترته فهذا عطر من أعشاب، أتت به من بخارى، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند، عجبت، كيف فاتنى شراؤه؟ ضحكت، أخرجت رغيفاً أوزيكيا، قالت إن اسمه «نون» فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبداً، ضحكت مرة أخرى، قدمت زيتونا وعنبا. قالت إنها لا تتناول فى العادة عشاءها، لكنها أحياناً تجوع فى الليل. فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير، كدت أهفهم فرحاً، إنها تطلعنى على شىء من خصائصها، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفاً، كنت أسعى متمسكاً ولو شبها بسيطاً بينى وبينها، هذا حال لا بد أنك مدركه يا أخى، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوماً فقط، غير أننى تداركت ضاحكاً، فرق الأيام قليل، ولكن السنوات شاسعة، عشرين كاملة، صبحها قريب، وأصيلى سار، وداخلى إلى غروب، رددت تاريخى، قالت إنها لن تنسى أبداً، ولما بدأ غيم من وجومى، شردت لحظة، تسالمت عما

أفكر؟. قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سنوات عشر، قالت، لماذا تشغل نفسك بما لا تثق من وصولنا إليه؟ ثم قالت، هذه الطائرة معلقة بين السماء والأرض، وخطأ أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حداً للنهاية، فلماذا لا نقترن باللحظة؟.

لم أقل لها يا أختى إن اللحظة التى نعيشها سرعان ما تنتقضى، لن نمسك بها أبداً، دائماً تولى، تفلت، فنحن فى فوت دائم، أما جلستنا هذه وقربنا ذاك، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية، استرجاعها بالمخيلة، لم أقل لها إننى أرى لحظة افتراقى واللقاء متصل، وهذا جل اغترابى، وصميم قلقلتى، لم أقل لها ذلك، لكنها أدركت. فكت رموز سماتى، نفذت إلى لب صمىتى.. قالت مرة أخرى.

«تبدو مهموماً»

ثم قالت:

«تبدو متقدماً عن سنوات عمرك.»

ثم تساءلت:

«لماذا لا تعرف أنيتك؟»

قالت إنها منذ ثلاث سنوات، أجرت عملية جراحية، رفضت المخدر. أصرت على إجرائها وهى مكتملة الوعى، الألم له حد لا حد بعده، الألم يقتل الألم. لكنها أدركت فيما بعد أنها لم

تطلق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة، قالت إنها فى رحلة كهذه تضمن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى.. قلت لها إننى عندما كنت فى المعتقل منذ عشرين عاما، تأملت رفاقى الستة والعشرين. العنبر ضيق. معتم، والموقع قصى عن المدينة، بعضهم يروح ويجىء. عندما جاهرت بخاطرتى..

«ترى أين سنكون بعد عشر سنين؟»

تطلعوا تجاهى صامتين، مفاجئين، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين، كانت السنوات العشر تبدو نائية، ممتدة، مسافة شاسعة، خطأ الزمن، وانقضت عشر فى أثرها مثلها، وتفرق كل منا إلى جهة. وبعضهم رحل عن دنيانا، ومنهم من نسيتهم تماما مع أننا قضينا أشهرا ستة متوالية معا، مهديدين معا، ناكل من ماعون واحد، ولو أنى شئت تفصيل ما جرى لكل منهم لفاض الأمر، لكلت، تقلبت المصائر بهم، وتفرقت السبل، كانت تصغى إلى باهتمام يا أخى لم يقابلنى أحد بمثله. ثم تساءلت عن السبب الذى أدى بى إلى دخولى المعتقل، ثم سجنى، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى، والنفسى، غير أن ما أقلت منى واستوقفها قولى:

«كنا نحلم بتغيير العالم!»

تساءلت بجدية:

«ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا؟»

تطلعت إليها صامتا، كنت عند نقاط معينة أحميد. تذكرت صاحبي، أستاذ الهندسة القديم، الذى يجلس على مقربة، تفاؤله الأبدى، وابتسامته فى أصعب الظروف، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعليق بالبدييات حلما. الأمور المفروغ منها. المتفق عليها بين الكافة، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله، غير وأننى الملت، طويت وأحجمت، فالأمر يحتاج إلى تفسير، وإننى آتيا به، غير أننى مرجئ ذلك، فما أحوجنى أن أعرف عنها.

قللت إنها الابنة الوحيدة، تدرس المعمار منذ سنوات، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين، ترتب أموره، تدبر شئونه، تعد الطعام، أحيانا يشاركها أيام الأجازات، إنه رقيق، لكنه شاب، شاب جدا، صغير.

لا تفوتنى نبذة صوتها، مرة أخرى ألتمز الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج، تلفتت ، والتفاتاتها يا أخى حادة، مَبَاغْتة، غير أنها لطيفة الوقع، تلقى عندى دعة، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبى. له جمال بذاته، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة، باغتنتنى، اتجهت صوب يدي، بسطتها، حدقت إلى خطوط راحتى، لم تقل شيئا، عندما بسطت كفها للمقارنة، تدفقت

تجاهها، أحطت بيدها حتى سرى إلى نبض أوردتها الخافت
 وحرارة جسدها، رفعتها متأنيا، قبلتها، بل قل إننى مسستها
 بشفتى، غير أننى أقمت، بقيت منحنيا، بدت شاخصة، متطلعة.
 عندما مست شعر أسى، طارت دقات قلبى بعضها، كبحت
 زمامى، هذا أقصى ما يمكن صدوره عنى، وجمع على مقربة،
 بعضهم يسمع ويرى، بقى عناق أصابعنا، وإرتدت ملامحها
 إلى طفولة، إلى مراحلها الأولى، فأطلعتنى. على ما لم أراه. لا
 أدرى متى قالت إنها تسبغ مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء،
 تمضى للسير فى الغابات الممتدة، المحيطة بالمدينة، عند لحظة
 معينة، صعب تحديدها اتصلت الحميمية، وتوحدت الأسباب،
 فصار كلانا يتلقى عن الآخر فى اللحظة عينها، وفجأة، انتهت
 إلى تسرب اللحظات منى، فبدأ وعى بالمغادرة، ووجدى الذى
 سيعقب الانقضاء.. طفت من داخل الحان عتيقة، وبقايا
 أشعار، طلبت منها أن تصغى. فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء،
 هل تعرف آلة القانون؟ إستفسرت فشرحت موضعا، رفعت
 إصبعها.. «السانطور..»

قلت إنه يشبهه، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع، وليس
 بالطرق. إننى أتقن العزف. لو بصحبتى القانون لهيات مجلسا
 لى فى هذا الحيز الضيق، ولا أكلها إلا عزفا، استعدت
 بخيالى مواقع الأوتار. صفرت النغم بغمى، هكذا صرت
 العازف والمصدر معا، حتى أتممت على مسامعها بشرف
 سماعى راست أتقنته منذ زمن، صار سلوتى إذا كوانى
 وجدى، أو طحا بى شوق فى الضلوع عاصف، أصغت دانية
 منى، هزت رأسها مرتين، ومن أعطافها سرى إلى هبوب، بدأت

أتلسم دربى إلى رانحتها الخاصة، تضاعف وجدى، فنوعت
واسترسلت، فلما فرغت، قالت بإشفاق..

«هذا جميل، شجى، لكنه حزين..»

اعتدلت، واجهتها بكلى، فى كل لحظة يقلع من عندى وقد
إليها ليبلغ وينبئ، قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعراً،
بل لا بد من إيجاد لغة تخصصها، لا تخاطب بها إلا هى، ليس
مثلها مثل. ملت فلاقت جهات وجهها جهاتى، استدعيت من
دقائق ذاكرتى شعراء، أنشدتها بعضاً مما احتوى حالى، ما
تنبأ به شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة، ما عرفوا أنى ملاقيه،
اجتهدت لنقل المعانى إلى الإنجليزية، وعندما قالت إنها تذكر
بيتاً للمتنبى هففت فرحاً، وأفانى إشعاع من عينيهابممد
فبدد تعبى، وسقتنى من منابعتها فتقلبت بين حركة وسكون،
أبصرت دقائق غابت عنى، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله،
وأدركت ما بين الصلب والترائب، فاطلعت على التكوين فى
أوله، كنت غير غائب عن هيئتها الكلية، والجزئية، عن هيئة
جلستها، إطلالتها، هيئة تحولها من جانب إلى آخر، هيئة
إصغلتها، إبدائها العجب أو الدهشة، أو بث إشارة خفية لا
أخطئها أبداً. كنت يا أخى كمن ينفذ عنه كموناً طال، أو
يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه، ومالم يخطر على قلبه،
أو عقله، ولا جاس بخباياه، ومن أغوارى نما النداء منى
والحض، أن أقوم، أن أجنو وأقترب. لكن مازال الأوان بعيداً.
فإنهم يا أخى ما حجبته وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله
إلى لفظ، لعلك - يوماً - شافعى.

اندلاع اللحظة

أخى..

من القائل:

بلينا، وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال، بعدنا والمصانع

من؟؟

هلا أجبتنى؟.. هلا ساعدتني؟ دلنى وردد القول، أما أنا
فإذا سنحت الفرصة فسأنقشه، سأخطه على واجهة معمار
تابع تصميمه من صميمي، لما استوى حضورها عندي.
وتأهبت روحى لتقلع من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ما ظل

سنين جاثما. أقصد تعلقى بالبناء، ودراسته، وترميم القديم منه، وهذا ما أتقنته، وذاع عنى، إنه الرغبة الدفينة يا أخى فى عدم الزوال، فى البقاء. فى تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف مروقها. انفلاتها، فكأنى أعوقها بالحجز. وإن كنت عاجزا عن تأخير حينى، أو استعادة ما أفلت منى. فى غمار نشوتى يا أخى، يا أعز الأقربين، على شفا استيعاب عبيرها، والطائرة تميل صوب الأرض، ويدانا متشابكتان، وكتفانا متماستان، اندلع أمامى الخاطر النكد، فتجاورنا يوشك على انفصام والمتاح لى ساعات، ثمان وأربعون ثم يقذف بى عبر الفراغات العلاء، أصير إلى جهة. وتبقى هى فى جهة، فماذا أنا فاعل؟ ماذا سأجنى؟ هكذا أرى لحظة زوالى، ونأبى، أرى عين افتراقى معى فتح وردد مع القائل:

إذا هى مرت لم تعد، ووراءها

نظائر، والأوقات ماض وقادم

فما أب منها بعد ما غاب غائب

ولا يعدم الحين المحدد عادم

قل معه يا أخى:

أمسى الذى مر على قربه

يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى، ناديت نفسى، أن أتجلد، هذا ليس إلا الفراق الأصغر، وبعد ساعات يبدأ الفراق الأكبر. قامت بعد توقف الطائرة. أخرجت من حقيبتها غطاء رأس من الفرو ثقيلًا، نافر الشعيرات، له فرادة. فلم أر مثله. كنت أتأهب لتلقى أول بواده للوجد بعد الصبابة، لا أقدر على معانقة اللحظة كما أشارت. فكل لحظة إلى بلى صائرة، ولما ارتديت معطفى، وتأهبت لملاقاة البرد الصقيعى ودعتنى بابتسامة، لا بد أن تمضى إلى الهندى وصحبه، غابت عنهم طويلا هى المكلفة بمرافقتهم، أومات صاغرا، أشارت إلى غد، حددت السادسة، أى ساقضى ليلة ونهارا فى مدينة تسعى فيها، تظلنى الغيوم ونفس السماء، وأتدثر كما تتدثر هى من شتاتها الكوفى، لكنها فى مكان، وأنا فى آخر أنوء تحت تعبى الذى بدأ بمجرد ابتعادها عنى، غصت فى مقعدى، محملا إلى الأشجار المتتابعة، المكلة بالجليد، أخضر، وأبيض ناصع، نقى لا يشوبه كدر، إلى كنيسة زاهية ألوانها. الأحمر صريح. الأصفر قوى. الأخضر خصب. أما القباب فسرمدية، إلى ضباب كثيف يخفى نهايات المبانى الضخمة وقممها، كأنها تنهض من دعائم الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب، بدأ ضوء النهار واهنا. والقوم يسرون فى أريدتهم الثقيلة، يمضون فوق الأرصفة إلى غايات شتى، أما غايتى فموشكة على التبدد، ساعات وأغانر، ما تبقى من زمن غير مساعد، كيف يمكن لصلة أن تنمو. ولوصل أن يجزى، إذن.. ما يعينى أن أبلغ ما عندى، ما

أراحنى أنتى كشفت لها قبسا. لو جئت مرة أخرى وهذا
صعب، وعر، فهل سألقاها هى، هى، وهل تبقى اللحظات
المتوالية إنسانا على حاله؟ عند باب الفندق، فوجئت بها تنزل
من العرية، يميل رأسها قليلا، تضم شفيتها، أما الابتسامة
فبوجهها كله..

إلى غد.

قالت مؤكدة: السادسة، وددت لو لذت بسموقها، لو احتميت
بوارفها، لكن.. لم يكن من الوداع المؤقت بد، ولا من الانفراد
مفر، فألى من أخلو بعدها؟ رغبت التوحد بذاتى، واستدعاء ما
انقرض من وقت، هكذا هرعت إلى حجرتى، محتما بهدونها،
متوضئا بصمتها، بفراغها، مستلقيا مستسلما للرؤى، بدءا من
القباب السمرقندية، والمداخل الشاهقة، والحضور البخارى،
وحديقة القصر الصيفى، إلى مشيها، إلى ظهورها بين شجرتى
التوليب، إلى قلبها من طور إلى طور فى ليلة سهرنا الحميمية،
إلى أثر لا تلحظه عين يتركه قوامها الباسق فى الفراغ الذى
تجوز عبره، كنت أصغى إلى تدفق الحياة فى أوصال المدينة
المدثرة بالتلوج، والشجر الذى لم يبيل اخضراره فى الصقيع،
وعندما أغمضت عيني، كانت تغمرنى ولم يكن لى عاصم بعد
اليوم.

اعلم يا أختى أن ما ينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود،
وثمة ما نراه بالنظر، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده،

وآخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا، وصرنا منه فى أمر
سديد.

هذا عين حالى الآن، وجوهه ذلك العصر يوم أويتى من
آسيا الوسطى، أغلقت بابى، أقمت أرصادى، لم أرفع سماعة
الهاتف رغم توالى الرنين، لم أعبأ، هى على مسافة يمكننى أن
أقطعها مشيا. بعد ليلتين أصير إلى قارة. أعود إلى نظام،
وتبقى هى فى نظام آخر، هذا حالى معها. هذا ما قدر
على.

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى. لاح خسرى، أدركت
أننى أدرب نفسى على فراق يقينى، وأننى أستدعى إلى
اللحظات الآتية مكابدة مقبلة، فعبثا قولها. «عش اللحظة»،
ودعك من أت قد لا تبلغه، إنما أنا ما كنته، ما جبلت عليه،
وعندما ثقل الليل تساءلت، أين هى الآن؟ فى أى مكان تخطو أو
تجلس أو تتأمل فى عين هذه اللحظة؟ تماما كما سيكون حالى
لأمد طويلة مقبلة، برغم إعيائى فى فورة حجبت عنى الإغفاءة
والهجعة، أى من أصابنى؟ أنا الحزين، المبتعد، كنت أدرب
النفس على أن ما مررت به اكتمل وتم، مهما جاءت به الساعات
الآتية. القادم لا أتوقعه وإن تمنيته، الحق يا أختى، أن شكا
روادنى فى وعدما بالمجى لترانى، وأننا سنلتقى مرة أخرى،
على امتداد النهار التالى خرجت، انتقلت، عبرت الشوارع
العريضة، خطوط فوق الثلوج المزاحة فوق الأرصفة، لبيت دعوة

من صاحب لنا، كنت فى كل لحظة، عند كل إيماءة أو التفاتة موقناً أنها ترقبني من مكان خفى، أنها توشك على مناداتي، وكنت مهياً لأن ألبى، حتى إذا ولجت باب النزل الفسيح طالعنتى هى، هى بوجودها، بحضورها، بسناها، كانت بصحبة زميلتين ومن تطلعها، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا للانتظارى، ولم تأت إلا لترانى، فشب عندى توق متجدد. ما إن لمحتنى حتى أنهت حوارها، أقبلت نحوى، كانت شاهقة كنصب حى للأنوثة، ترتدى قميصاً من حرير، يشى بمشد صدرها. وحزماً جليدا عريضا أبرز دقة خصرها الذى أوشك أن يكون رمزا، عجبت، إذ كيف يمكن أن يحتوى؟ كأن فراغا يفصل نصفها العلوى وقدها السفلى، وعندما تقدمتنى كانت تسرى ولا تمشى، أما خطاها فصهرت ما عداها، الأبواب المطلة على الممر، والجدران القائمة. والبسط المفروشة، والمصابيح الواهنة، وأرقام الغرف، لم أعد أبصر إلا هى، ولا أرى سواها، وعندما دخلت الغرفة، وعبرت إلى المقعد الوثير، توقفت رانيا، مدمماً فى قرارى، كطائرة تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع. كانت أشواق طال همودها تستنفر، تبرزغ، وأحاج لم تحل، وأسرار تراكمت عبر المسيرة، كنت موشكا على الإفضاء بها، كانت تضوى، أما وجودها الحسى فيلغى ما عداها، انتشت داخلى طاقات عتيقة، وتجددت منابع جفت، تهيأت لنثر درى ومرجانى انقليب صحفى الأولى، وتجديد أحوالى البالية، لما رأيتها متطلعة إلى، مستفسرة، متأهبة، منتظرة، لمحت البشارة آتية من

ضيا عينيها، لم أثن، لم أضيع لحظة، إنما على الفور بدأت
الدعوة.

جثوت!

شيعت لثمي، وتقبيلى إلى كافة ما طلته من عالمها الحسى،
بدأت بيديها، وطفت، ثم عدت، أنفاسى زفير بلا شهيق، حتى
إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير،
أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطياقها،
رائحتها الخاصة، غير أنى لم أتوغل، لكنى عندما استنشقت
نسائمها، هبوبها، تفتحت فى صدرى طرائق ودروب ومسارب
ما ظننت يوما أنها عندى. عانقت رائحتها، تعلقت بها، اقتفيتها
فى شعرها، فى جبينها، ارتميت تحت فتحتى أنفها حتى أتلقي
من صدرها خبرا، فى وجنتيها اللتين شعتا ضوءا خفيفا حلوا
ليس من مكونات هذا العالم. استنشقتها من طيات ثيابها، من
أطراف ردائها، كنت أبغى تثبيتها داخلى، انخار جوهرها،
الإمساك بلبها حتى لتخرج من مسامى وأنفاسى، فإذا نأت بى
الديار، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة، أمكننى استعادة بعض
من ديمومتها، تعلقت بيديها، تهجدت نظراتى صوبها، انحنيت
ملامسا. أصابعها بجبتهى، كنت أخلق طقوسى، لا سابقة لها،
ولن يكون، رددت اسمى، اسمى لا غير، انتشيت لما أصغيت
إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب، تطلب منى أن أكف،
أن أتوقف، لفنى صوتها السارى إلى، تراجعت برأسى قليلا،
رأيتها فى خلق جديد، فى كل مرة يا أخى تبدى لى يا أخى

ملاح أدركها لأول مرة، عدت أهوى إليها. تجاهها ارتطمت، حطمت، طوقت عبيرها مرة أخرى. رائحة يا أخى ليس لها مثل، اعلم يا أخى أنها أم من روائح شتى، كلها طيبة، مسكرة، فمنها طيب منبعث من ثنايا شعرها، وبقايا عطرها، وإشعاعات وجودها، وثناياها النائية، هذا يدق عن الإحاطة، يستعصى على الوصف، لو أنى قدرت على الاستعارة، ولو قبسا، لاستمر يعثى ونشورى، لو أعاننى الدهر على الوقوف عندها مرة أخرى لبلغت ما انطوت عليه الفكرة، لجاوزت مسافة القدرة، لتجدد عطائى بغير حساب.

فأليريا..

ناديتها همسا، فجاءتني بالنظر الطوم، رجوتها أن تقف، لبت يا أخى لبت، سألتها أن تخطو، فلما جاءتني، حاولت معانقة الفضاء الذى اجتازته، الذى عبرته، فلما أعيانى الأمر. قبلت مواقع الخطى، عندئذ انحنت، قابلتني بعينيها، لاقنتني بنظراتها، أشرفت، حنت على حنوا، أطلت، وكنت أعى أن قدرى يكمن فى إحدى هذه الطلات. درجت نحوها، ساعيا إلى روح وريحان، حاولت النفاذ عبر عينيها، فأقلعت عبر رياض، ومفازات، ولست قمم أشجار نادرة، وجزت وديانا وبيدا، وطفقت بمدن لم أطأها، وفاتتني أرض لن أبلغها إلا بشق الأنفس، راقلا فى نعيم القوم. متدثرا بحزن البلاد كلها وصحاريها، غير أن وقاضى ارتد خاويا. لم يحط بشيء، لكن تفجيرى دام، لم يبلغنى كدد، حتى تعجبت فيما بعد، أكان هذا

كله منى؟ حمت راجيا حول وجنتيها، لثمتها بشفتي، عاودت النظر، فلما أيقنت من وصول طائرها، وفضضت بريدها، بركت على شفتيها. وأنزلت متاعى وحملى. دفعت لسانى إلى دفة فمها الوردى، فكان شقا منى ارتد جنينا، كأن الوجود عاد سيرته الأولى. وعندما تطلعت إلى عينيها، أيقنت توفيقى فى إبلاغ الرسالة. وأن المجاوبة آتية والتلبية على وشك، لم تكف عن ندائى باسمى، مطالبتى أن أهدأ، لاح فى صوتها إشفاق وحنو. رأيت عينيها تسكبان رحيقا نحوى، ورحيقهما يا أخى لو تدرى عجيب.

أعرف يا أخى ما يجول بخاطرك لحظة اطلاعك، عند إدراكك سطورى هذه، ولكن صبيرا يا أقرب صاحب، وإن كنت فى بعد، صبيرا، فإنى أبوح بما أخفى وما أبطن، وإنى لمفسر لك. ولكن قبل ذلك يجب أن تصغى إلى ما أرغب تفصيله حول نظراتها تلك..

نظـر

افهمنى ولا تتعجل يا أخى، نظرها إلى المصحوب بترديد
اسمى، إنما يعنى أموراً شتى، كانت كلها على مقربة، وكنت
دانيا، جاثيا، أرقها، وترقبني، نظرها يتردد بيني وبينها، منها
إلى. نظر أصفى أطيافا على ملامحها، على رونقها، أكد لى
قبولى عندها، وللقبول يا أخى إذا تم شأن عظيم، لكنه قبول
مشوب بحيرة مشروعة. فلم يمض على تكوكبنا بمقادير دنيانا
إلا قدر يسير، ربما حيرة وليس ترددا، فى نظراتها أيضا حث
لى وحض، أن أقدم، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مداه، إلى
محطه الأخير، أن يتوالج كونانا. لم تردنى، إنما أباحت لى

كوكبها الدرى، حتى إننى جست بيدي خلال الأكم والروابي، فلا ينقص الأمر إلا دفعة يسيرة متوقفة على. ولم أقدم، لم أفعل، مع أنى الطالب وهى المطلوب! ستقول، وفيم الإحجام؟ فيم التقاعس. هنا أقول لك، أفهمنى، وأدرك ما عندى، لم أسع إلى المنهى، قد يبدو غريبا هذا، ستسألنى، ألم ترغبها؟ أقول لك إن ماشب عندى حريق، ومن أمسكت النار بثيابه، كيف يهدأ؟ لكنى بقدر ما رغبت، بقدر ما أحجمت، فانصهار كينونتنا لن يقدر له الدوام، ولم أكن أسعى إلى اتحاد عابر، فى ظرفى ذاك. لو نلتها ونالتنى، ربما انتهى حومى، وربما وضع الحد لاستمرار اقترابها منى. لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير. إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء، لم تكن بالنسبة لى نقطة عبور، ولا جسرا مؤديا، وعندما تعانقنا مال كل منا على الآخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه، لا يمكن ردها، وكنت أحتمى منها لحظة مرورها بالعناق، بالإحاطة بها، مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس، وهذا رغما عنى، وعنهما، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه. فلن يتبقى شىء، سبب ثان يا أخى كنت حريصا حتى لا يملكها الظن أن هذا ما سحيت إليه لا غير، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى، وشموليته، وشدة توقى، هل فهمت عنى يا أخى؟ لا تفوتنا الإشارة إلى حدة وعيى بقصر المدة، ولم أكن قادرا على التنبؤ بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته، ربما ألقيت بكافة المحظورات جانبا. ربما اختل دستورى، وأثرت الهيام

على وجهى إلى أبدى قريبا، أهجر ديارى، وأخترق حاجز العقل، لك أن تتصور يا أخى ما صرت إليه كنت أدور حولها، أنا الجزئى وهى النواة، وما من اتحاد، كأتى من طال بحثه عن نبع الحياة، حتى إذا بلغه، لم يدر أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحسو منه، وبعد الفوت أدرك خسرانه المبين. كأتى طائر الرخ الذى علق له السندياد قطعة اللحم فى طرف العصا مدها أمامه، موجها إياها إلى الجهة التى يرغب، والرخ يطير لعله مدركها، لعله مطعمها. ولكن عبثا التناول.

لعلى وفقت فى إبلاغك كنه الأمر.

اعلم يا أخى أن النظر تهادى بيننا. وعند لحظة بعينها ذوت حيرتها، أيقنت باطلاعها على مكنونى، هكذا احتوت رأسى بين يديها، ملت حتى أويت إلى صدرها. أنست منه مأوى، راحت تتخلل شعرى بأصابعها، رددت.. «رمادى.. رمادى..»

أوشكت على رؤية ملامحى فى نغم صوتها، ما فى رأسى من شيب. كنت أبسط تاريخى كافة أمامها. ترفع رأسى. تحديق إلى..

«حزين.. لماذا هذا الحزن كله؟»

ثم قالت:

«لم تبق إلا ساعات وترحل..».

ثم قالت:

«سأراك غدا. سأبقى معك حتى الرحيل..»

ثم قالت.

«فى الساعة الثانية عشرة، ساكون فى مبنى الاتحاد..»

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى، مثيرا شوقا جامعاغير

ذى عوج..

«نلتقى هناك..»

تراجعت قليلا. رأيتها حانية، مطلة، مشرفة على، محيطه بى،
لم تلفظ إلا همسا. لا يمكننى تفصيل ما قلته، أو ما قالته لى،
كانت تميل على، تزقنى الألفاظ، تطعمنى مسك الحرف كما
يهدى طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير، على مهل كنت
أتحول إلى عناصرى الأولى، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد.
فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبدي؟

الوجد

.. اعلم يا أخى - صبرك الله وخفف عنك ما يسبب لك بأساً
أو ضرراً - أن الفراق حق، والبين حق، وأن التئاني حق. كل
مجتمع مصيره إلى افتراق، وإلا لما كان اجتماع أصلاً. فلم
أرها بين شجرتى التوليب إلا لأنى فارقت ديارى وارتحلت،
لكن، فرق بين إدراك ذلك بالعقل، وأن تعيشه، فرق بين وعى
به. واكتوائى، اعلم يا صاحبى أن الأصل فى الأشياء التفرقة..
هكذا بدأ وجدى واشتد، وأوعره ما جاء بعد تباعد ديار،
وانعدام يقين من أوية أخرى، هذا موجع. الوجد يا أخى شدة
الشوق، ولا يكون الشوق إلا إلى غائب، وطول الوحشة

يضاعف الحسرات، هذا ما صرت إليه بعد حين، عندما عدت إلى ديارى أغمضت عيني في ليلتي الأولى، أشبه بالطافي، المحموم في فضاءات رحبة وما من شيء يشده، كان فرحى بإدراكها. والوصول إليها. وفهمها عني، مازال ممتدا. غضبا، فكأنى سأصحو فألقاها بجوارى، أخرج من بيتي، فكأنى ذاهب إلى لقائها، أينما وليت وجهى أراها مشرفة على، مرة تلوح هيئتها كما شهدت في آخر لحظة، وهي تقف أمام الفندق. وفي ملامحها شجي، ترتدى معطفها الأسود، تدس يديها في جيبيه، حاسرة الشعر، غير عابئة بالصقيع، بعد استقرارى في العربة، خطر لى أن أغادرها، أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات. أمد يدي فألمسها، أو أصافحها مرة أخرى، أستوثق من كينونتها المادية، غير أن الرحيل بدأ، فلا مفر، كنت كالظامئ المقيد المرغم يبسط نظره إلى الماء وما هو ببالغ، وقفقتها هذه تعتقت في خلاياى، فلکم استعدتها، وفي كل أونة أرى مالم أطلع عليه من قبل، وعندما وصلت العربة إلى المنحنى، حيث قام أول حاجز مادي حال بين بصرى وبينها، وخطر لى أناستأنن مرافقى، أن أنثنى لحظات، غير أن ميناء الإقلاع بعيد، والوقت يمضى بى إلى اتجاه آخر، لا يؤدي إليها أبدا، أراها الآن يا أخی لحظة تدوينى هذا، فأكتشف في وقفقتها تلك حزنا أعمق، وميل قوامها إلى الأمام، وتهدل كتفيها، لمحت في صالة الفندق نوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها. هل تفهم عني إذا صارحتك، بوى انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هي بمقربة. تكف إذا توقفت، وتمشى إذا مشيت، لا تتبادل الحوار إلا عرضاً، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصاً غيرى أنبعث من داخلى لينوب عنى، ليبتسم لهذا. ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذلك، كان وجودى قريبها على مرأى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه، كذا وجودها بالنسبة لى، كالنا فى مواجهة الآخر. لكن الانتقال مقرر، وعندما يصبح التناى مفروغا منه، لا راد له، ينتفى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت، جريت هذا يا أخى عندما وقفت يوماً أمام جثمان أمى، كانت متمددة، مغمضة العينين، أوت إلى أبد، المسها، لكنها لم تعد من هذا العالم، أميل لألثمها. لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أنادىها فتجيبنى، وجودها غير موجود. وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظاتها الأخيرة، علما أن فراق الحى أصعب من فراق الميت، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائماً، إنها تحضرنى يا أخى تتمثل فى. أرى تلك اللحظة الوداعية. هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل، آيل بسببى، وجهها الجميل يضاعف الأسينة، خاصة والليل مكتمل، وياقة الفراء تؤطر عنقها الجميل، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ما قضيته معها من زمن حسى، فلم يكن ما قضيته معا إلا لحظات معدودات. ولم يكن تلاقينا إلا كتماس الشهب المارقة فى اتجاهات منضادة، غير أن كلا منها أودع الآخر

لهبا، وجمرا، هكذا يا أخى نمت عندى حالة الفرخ الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى، كنت أصحو مبتهجا متطلعا ببهجة إلى الآتى، غير ندى صدود كأمرى قبل لقائى بها، أعى نأىها عنى، لكن لا يفزع قلبى. ولا تهرع روحى. إنما أقدم نشيطا، راغبا فى رؤية صحبى، والمضى إلى الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا، أقلب حاجاتى التى صحبتنى فى سفرى مبتهجا، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك بحقيبة سفرى، وحقيبة يدى. وحلتى التى أرديها. والأخرى التى قالت إنها تفضلها، وكتبى. ودفتر ملاحظاتى. وغطاء رأسى، وجواز سفرى، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها. وحتى الأمس مواضع مرت عليها أناملها، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا. لعلى أرى ما لا يمكن رؤيته بالنظر، دام انطلاقى هذا أياما معدودات، صعب على إحصائها بدقة، لكننى بقيت خلالها غير منتبه إلى المسافات القصية، لا أدرى ما سيصير إليه نبنى بعد حين.

إذا لاقيت صاحبها أود لو حدثته عنها، أو أدير الحديث إلى وجهة تمكنى من إيراد تفاصيل متعلقة بها، غير أنى دائما أقف على شفا البوح، فمما لزمته بعد هذا العمر أن أكتفم وأحجب، كانت تملأ على جهاتى. أتوقعها مقبلة نحوى. تفتح بابا مكتبى، تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشب بعد إشعالها الجدوة، بل أتمهل أحيانا كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا. حتى أوشك على تلمس جسدها الضاج قريبا. كأنها تسعى حولى. كأنها توشك أن تدنو منى، كأنها

مقبلة، مبتسمة، مادة اليد، مصافحة إياي، كأن لقائى بها مفروغ منه.

صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد، أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلى ببقائها يوم رحيلى، حددت مقر اتحاد الفنانين مكانا، أما الوقت فدار حوله همى، طوال الليل المتبقى بعد انصرافها، رحت أستعيد ما تبقى منها. ما أودعته فراغ سكنى المؤقت، غرفة الفندق، فى مطلع النهار الجديد طوقنى شوق، مسنى إليها أول حنين، هرعت إلى المكان الذى لزمته معظم الوقت، قبلته، إلى موضع جثونا فلثمته، كنت أتعجل مرور الزمن واستبطئه، فما خلا منها أرغب انقضاءه. وما اكتمل بها وددت ديمومته، ولكن يا أخى هل يدوم شىء أبدا؟

خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة، المجلة بالجليد، طفت متاجر البضائع الأجنبية با حثا عن عطر تفضله. وعندما لحت علامته تناولته، ضممته. قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر خاص. مررت الموعد المحدد بمدخل المبنى. طفت الشوارع المحيطة صقيع وعمر، ويرد لم أعتده، لكن ما خفف عنى أن كل خطوة تقربنى إليها، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف، متدثرًا بمعطفي، مسدلا غطاء رأسى. جزت البنايات الهائلة، والمداخل، والنواصى المؤدية، حتى اجتزت الباب الخارجى الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة، بالضبط الثانية عشرة، المقاعد مثقلة باكوام من ثلج هش، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمستهُ أو أمسكت بحفنة منه تدرى، تماما كغياب وعيك
بعض اللحظات، أثارَت نِصاعته عندي بهجة غامضة. تذكرت
صاحبة لى تقيم فى مدينة نائية، قالت لى يوما إنها تتفاعل
بنزول الثلج، وقفت متطلعا إليه، منصتا، الشتاء يضىفى بعدا
غامضا على الموجودات، لعلى ألتقط إيقاع مرور الوقت، الزمن،
أو ذلك الخفى المبين الذى يجمع ويفرق، غير أن ضجيج المدينة
المندغم. المدوم، حجب وأبهم.

سمعت خطاها. صوتها ينادينى دهشا، مبتهجا، التفت
فرحا، فوجئت، لا ترتدى إلا قميصا من صوف خفيف، اجتازت
الحديقة نحوى حاسرة دون غطاء رأس. دون معطف. كيف
تخرج هكذا. أشارت إلى ساعتها..

«الثانية عشرة تماما..»

أشرفت، أجبته..

«طبعا»

مبتسمة، مهللة، ضاجة بالفورة الحيوية، تصور يا أخى لو
امتد الأمر عدة من أيام أخر، تصور توالى ظهورها، تنوع
إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد. فى كل مرة تجدد،
وتهلل مغاير، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتتى حتى
عن نفسى، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومنزلة، عند
تواجهنا اختلف الوضع عن المرات المنقضية، فبعد أن دنا كل
من الآخر الليلة الماضية، بعد تماس كونها بعالمى، صار عندها
منى، وعندي منها، امتد وقت، ومودة، وصلة، أما قريبا منى

فله خصوصية أخص، ضاج، فواح، مشع تجاهى، فكأنى
 بالنظر ألمس جسدها، أتوسده، هذه الوقفة، تلك الطلة. قريبا.
 ترحيب عينيها، علق بى هذا كله، صار مددى فى قفري، وزادى
 فى بيدائى، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى
 طال توقى لظهورها، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة، لم يكن
 وعيى بفقدتها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته، لكن فى ظروف
 مغايرة مختلفة، وإنى لقااص عليك نبأ منها لعلك مدركى. اعلم
 أنه بعد رحيل أمى. ورحيل أبى، انقضت أيام ثقلا لا يمكننى
 إحصاؤها الآن، كنت أهيم خلالها فى الطرقات غير واع
 بالفقد، غير مصدق، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف، أو طرق
 أبى بابى كما كان يفعل. أو دخولى صالة البيت فأجدها فى
 انتظارى، شيئا فشيئا بدأت أنتبه للفقد المحتم، وإن ما كان لن
 يكون. لن أصغى إلى الصوت الذى ألفته، ولن الأمس اليد التى
 عرفت، انتبه يا أخى إلى ما قلته لك، انقطاع الرجاء من لقاء
 الحى أصعب، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأمله وصحبه حدا
 يتوسأ، فما من إمكانية قط، وهكذا يقضى اليأس إلى النسيان،
 لذا يقولون إن كل شىء يولد صغيراً، عدا الحزن على الميت
 فإنه يبدأ كبيراً ثم يضم، أما فراق الحى فهذا هو البين عينه.
 والبأساء والضمر، خاصة إذا تباعدت الديار، وشط المزار،
 وأدرك الوهن أملا فى لقاء، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى
 حدثتك عنها شبيهة بالخروج من دفة الغرفة إلى الصقيع،
 جريت هذا. بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة

البرد. ثم شيئاً فشيئاً يسرى، حتى يلفك فترتجف، إنها أشبه
باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم
الجسماني، في هدأة أنفرادى ذلك العصر. ألقيت بذاتي في
عينها الواسعتين، الفسيحتين، فجأة غزاني خوف غريب، متى
سأراها، وما الحال الذي سألقاها عليه، قلت:

«أخشى الموت، وإلا أراك..»

بادرتني على الفور، رنتها عاتبة، شاكية قولي..

«لكنك يجب أن ترجع إلى..»

اعلم يا أخى أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل، وتباعد
الديار وانعدام اليقين من الأوبة، هذا عين الخطب الموجه، شيئاً
فشيئاً بدأ فرحى يذوى ويبدأ وعيى يبعدها، بالمفازات. بما
يفصلنى عنها من مواضع ويرارى وقفار وفلوات وخراب.
بحار، وتلال، ارتفاع وانخفاض. ومراع ومدن. وهذه مواضع
ستتبدل يوماً. فالبهار ستصير جبالا والبحار ستصبح رمالا،
فلا شيء يبقى، إذن.. فما أبعد التلاقى، وطول المسافات،
واختلاف النظم، وريية العسس فما أتعس وما أظلم، تطالع
شمسى قبل شروق شمسها، ويسدل ليلى قبل ليلها، فلا
الزمان يوحدنا، ولا المكان يجمعنا. فماذا بوسعى أن أفعل؟
حتى إذا انقضت شهور، وعادت الفرصة، وساعد الوقت، فهل
سألقاها؟ ربما تكون على سفر، أو فى شغل عنى، أو عرض
لها عارض أحالنى إلى مصادفة جد عارضة فى حياتها
المتدفقة. وإذا دنوت وقمت واقفا أمامها، هل سألقى من
عرفتها؟

كنت الملح لك دائما أن الإنسان في الثلاثين غيره في الأربعين، وأننى في الخمسين مغاير لما كنته في العشرين. تزدى أمور وتستجد أشياء لم تتوقعها من قبل، لم تدر بخلدنا يوما، تنزوى أصول لم تتوقع قط تلاشيها. أذكر قولك إن الجوهرا لا يتغير. صحيح يا أخى، لكن هل تظن أن اللب قصى؟ مستعص على التغيير؟.. أقول إن الأمر غير يقينى، الآن أطيل النظر إلى ما فات، ما انقضى أطول مما تبقى، أما هى فتسعى بعيدا عنى، ويبدو ما ينتظرها بعيد المدى..

لما اكتمل وعيى يا أخى بالبعاد صرت إلى شجى، إلى أسى، هكذا ناء الوجد، صرت أسعى إلى كافة ما يمت إليها، قرب أو بعد، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقرا، اعتدت الإصغاء إليها، أحاول جاهدا تمثل المذيع، رسم ملامحه من صوته، ربما يسكن على مقربة منها، بإمكانه لو أنه يعرفها لسعى إليها، أن يبلغها بعد دقائق، صرت أتفحص الخرائط، أضع العلامات، بخارى، سمرقند، طشقند.. موسكو، تحركنا من هنا إلى هنا، اكتمل ظهورها فى مدينة. وتعارفنا فى بخارى، وشرعنا فى سمرقند، وفى العاصمة الكبيرة جرى التلاقى والتفرق. أما الحنين والتذكر فله قاهرته الحانية على، هكذا.. كان اللقاء فى قارة، والفراق فى أخرى، والوجد فى الثالثة، صرت أقعد فى جمع يا صاحبى فأكاد أسمع سعيها البعيد. توشك أن تقترب منى حتى أتأهب لتنسم عبيرها المفقود، المتفرد، أدرك بغتة الاستحالة، فأفارق الصحبة. أبتعد

عمن أعرف. أستقبل وحشة الطرقات. أمضى بلا هدف، بلا مقصد، حولى حشد، لكنى فرد، متوحد، أحيانا أمضى إلى صاحبي، من رافقتى رحلتى، من راها، من حادثها، وأطلع على بعض مما عندى، حتى إنه صار إذ نلتقى يسألنى ضاحكاً..

«.. أنت هنا أو هناك..»

فأجيبه مبتسماً..

«فى الأمر وحشة..»

بعد نزوعى إلى شيوخ أمرى، إلى الإفضاء بما عندى لكل أحد ارتددت إلى، أما حضورها عندى فصار مختلفا عما جرى فى الأيام التالية لعودتى، أحيانا تبدو فجأة، ليس أمامى فقط، وإنما حولى، أصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات، استعيد ملامح حذرها البادى، فأنا عند قومها أجنبى، وما أكثر الريب!! غير أنى إثر انقضاء أيام الفرح. وبدء طرقات الوجد، لم أبال، رحت أشيع الرسائل. مرة فى الصباح، والثانية عند الظهر، والثالثة ليلا، أكثر من شهر كامل، أحيانا لا أخط إلا التحية، وكأنى استعيض عن نطقى بكلماتى المكتوبة..

ولم اتلق ردا، لم تصلنى إشارة..

مع بدء الشهر الثانى ولأسابيع عديدة لم أتخلف يوما عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم..

ولم تصلنى مجاوبة، لم ترند رسائل إلى..

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء

كنت كراكب سفينة، تبصر مبتعدة عن المرفأ، والميناء يتضائل، تغيب ملامحه، تختلط مياثيه، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لا تتم عما تجتويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حداً تداخل البحر فى البر. وطفقت السيولة والديمومة، فيبدو ما كان وهما.. والبحر يطغى، ليشمل حتى الأفق..

دام حالى مدى، ولا إشارة، ولا إيماة خط حتى، مع توالى المسافات انتهى بى الحال إلى المناسبات، فمن ذلك رأس السنة، وقدم الربيع، ويوم مجيئها إلى العالم، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب، أحدق إلى العنوان، هذا خطها هى، الشارح، الرقم، كتيبته عندما كنا نجوز الفضاء عاندين من آسيا، إذن.. العنوان حقيقى، واليد التى خطته حقيقية، والوجه الذى دنا وابتسم عند تقديم الورق له كينونته، ألم أقترب؟ ألم أحدق والامس؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أذى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها، عندما طويتها بين ذراعى، عندما أقلت صوب عينيها. صوب شفيتها، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى، وأنه ملب إن إردت. إن دفعت الأمر قليلا، إن خطوت خطوة يسيرة، غير أن الوقت المحدود، والفرصة غير المساعدة، والرحيل الوشيك، وما سيطر على فكرى ويقينى، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتماله، هل أخطأت؟ لا أدرى.. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة، أمضى إلى ما قدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه، الساعة العتيقة ذات الجرس الخزفى، أستعيد قولها إذا قرعت الجرس

يوما، فسيصلنى صدها أينما كنت. أمسك الساعة أخرج إلى صحراء الصبوت الليلي. أهزها، أصغى إلى الرنين المعدنى إذ يتلاشى، أطيل إصغائى.. ما من نبأ!

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع، إذ يتدبب وعيى فجأة. أنها نائية، قصية، وإن اللقاء صعب، عندئذ أدخل فى هجاج لما يملكنى من يأس اللقيا، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها مقبلة على، أو حانية بنظراتها، أو مجاوبة بحركاتها النغمية. حيث يتخذ جسدها المطواع، الفاره، أوضاعا عجبا، أو سكون ملامحها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين، يتطلع كل منا إلى الآخر، يتزود كل صاحب من صاحبه، ثم أهدتنى ثلاث زهرات، هكذا.. أستعيد تحديقها إلى، وأحيانا أوشك على الإصغاء إلى سعى عبيرها نحوى، هذا أصعب الوجد يا صاحبى، فلکم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمها. من ثيابها، من راحة يدها، من خصلات رأسها أتأهب لوفودها على. أقف صامتا، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود. وإذ يكتمل وعيى بأننى ما كنت أسعى للاندماج إلا بالصورة، أفز من مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن، وإذ أنوء أرتد خائبا، مستعيدا نظراتها. حنوها. مستفسرا. متسائلا، هل ما جرى كان حقيقة أو وهما، وهذا ما أمر به الآن، هذا دافعى لمخاطبتك أنت دون غيرك، فلم يعد لى من الأقربين إلا أنت وإن بعدت المسافة، وطال زمن غربتنا عن بعضنا، فما وصفته، وما سرته، وما رويته، لم يكن إلا محاولة

أيضا لللممة ما تبعثر، لاسترجاع ما غلب عليه الوهم واللايقينية. وإن ما كان حقا. وليس برقا لمع، أو شهابا مرق، وإلا فأى وجد هذا يبحر داخل؟ ويبقىنى نائيا عن الخلجان والمرافئ الآمنة، أحيانا أنتظر مرات هبويها على وأتمنى أن تحل بى، فينزل على قلبى بردا وسلاما، أشبع بغير امتلاء، كما حدث ذلك الشيخ الجليل، عن حاله، قبل عدة قرون زمنية، إذ قال ما نصه يا أخى:

«وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى، فلا أقدر أنظر إليه. ويخاطبنى وأصغى إليه وأفهم عنه، ولقد تركنى أياما لا أسيغ طعاما، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلى، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى.

«تأكل وأنت تشاهدنى..»

فأمتنع عن الطعام. ولا أجد جوعا، وأمتلىء منه حتى سمنت وعبلت من نظرى إليه، فقام لى مقام الغذاء، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقى الايام الكثيرة لا أذوق ذواقا، ولا أجد جوعا ولا عطشا. «هذا ما دونه الشيخ الجليل، وليتنى مثله، قنعت بما كان عليه، لذلك أولى وجهى صوب اللاجئة، متوقعا اكتمالها أمامى، كما كانت عليه فى اللحظات الدانية من افتراقنا، ورأسى بين راحتىها، عندما قلت لها..

«أخشى الموت، ولا أراك..
فألقت فى سمعى قولاً جميلاً، حزينا.
«لكنك يجب أن ترجع إلى...»
ولهذا أسعى يا أخى، بلغك الله ما تتمنى..»

جمال الغيطانى
مارس - يوليو ١٩٨٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٥٢٨٤

I.S.B.N. 977-01-4453-3



مكتبات الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina



0403907



مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب



بسر رمزي جنيه واحد

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥